

مُحَمَّدٌ
صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لماذا نعيش؟

اكتشاف العبادة من خلال
أدوار النبي محمد
صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دروس لحياة ذات معنى
مستوحاة من خير خلق الله

يونس الشعبي

وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون

الذاريات: 56

كلمة شكر وتقدير

أَتَقَدَّمُ بخالص الشكر وعظيم الامتنان لخالتي العزيزة أمامة، التي كان لها فضل كبير بعد توفيق الله في إخراج هذا الكتاب إلى صورته الحالية.

فقد أعاننتني في تصحيح النصوص، وتنظيم الأفكار، وترتيب الفصول، ولم تبخل عليّ برأي صادق أو ملاحظة بناءة، وكانت توجيهاتها دائماً نابعة من حرص على الحق، وطلب للإحسان، ورغبة في أن يُكتب هذا العمل بأفضل صورة ترضي الله قبل كل شيء.

كان لدعمها، وصبرها، ونظرتها المتزنة أثرٌ بالغ في مساري أثناء الكتابة، فجزاها الله عني خير الجزاء، وبارك في علمها وعملها، وجعل ما قدّمته في ميزان حسناتها.

لماذا خلقنا؟	4
١- الابن	7
٢- الزوج	10
٣- الاب	19
٤- رسول الله	21
٥- قائد الدولة	22
٦- الزعيم	41
٧- القدوة الاجتماعية	43
٨- الجد وقدوة الأطفال	45
الخاتمة	50

لماذا خلقنا؟

لماذا خلق الله الحياة؟

ما الغاية من الخلق؟

اسئلة تتردد على ذهن كل إنسان. في صخب الحياة و دوامتها من عمل و نوم و استيقاظ و طعام و شراب والتأمل في مسار عمره، يطلّ هذا السؤال في ذهنه:

لماذا خلقنا؟

خلق الله الإنسان و هو خالق الكون وكل شيء و خلق الموت و الحياة المرتبطين بالخلق عموما و بالإنسان خاصة الذي خصه الله بالعقل فجعله مكلفا. فالسؤال الطبيعي الذي يطرح نفسه هو: لماذا خلق الإنسان ؟

والجميل أنّ القرآن الكريم يقدم إجابة مباشرة عن هذا السؤال. يقول الله تعالى في سورة الذاريات، الآية ٥٦:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وفقاً لهذه الآية، فإنّ الغاية من وجود الإنسان هي العبادة.

لكن يبقى السؤال: ماذا تعني العبادة؟

هذا بالضبط ما سنحاول توضيحه في هذا الكتاب من خلال التأمل في سيرة نبينا الكريم محمد رسول الله ﷺ، نجد جواب سؤالنا فهو عليه وسلم خير من عبد الله وأكمل من جسد الغاية التي خلق الإنسان من أجلها حيث بلغ الكمال في عبوديته لله، فكان بذلك أفضل و اعظم البشر.

في سبيل التأمل في سيرة رسول الله ﷺ وفهم معنى العبادة التي تحدّثت عنها الآية الكريمة من سورة الذاريات، اعتمدت على عدة مصادر.

من أهمها كتاب "حياة محمد" للأديب المصري محمد حسين هيكل، الذي يعدّ من أغزر الكتب بالمعلومات والتفاصيل حول حياة النبي ﷺ. كما استفدت من سلسلة المحاضرات الصوتية للشيخ الدكتور ياسر قاضي، المسجلة باللغة الإنجليزية والمتاحة على موقع يوتيوب.

وبالإضافة إلى كتب السيرة التقليدية، وجدت أن بعض الكتب المعاصرة تسلط الضوء بطريقة عملية على مفاهيم تساعدنا على فهم سيرة النبي ﷺ من زاوية جديدة. ومن ذلك كتاب "العادات السبع للناس الأكثر فعالية" لمؤلفه ستيفن كوفي، خاصة العادة الثانية التي يدعو فيها إلى "البدء والنهاية في ذهن"، أي أن يحدد الإنسان منذ البداية الغاية التي يسعى لتحقيقها، وأن يوضح مركز قراراته وتوجهاته.

وهذا ما نراه جلياً في سيرة رسول الله ﷺ. فقد كان ﷺ أوضح الناس غايةً، وأصفاهم نيةً، وأثبتهم اتجاهًا نحو مرضاة الله تعالى.

كانت نيته ﷺ أن يرضي ربه في كل قول وعمل، فانعكست هذه النية المباركة على كل أدواره ومسؤولياته.

وهنا ندرك أن الأعمال الظاهرة ليست سوى انعكاس لما وُقر في القلب. فالمرء إذا تأملت أفعاله وسلوكياته، استطعت أن تدرك مركز قراراته وغاية حياته.

ولكن البداية دائماً تكون من الداخل: من وضوح النية وشفاء الهدف.

رسول الله ﷺ هو أفضل خلق الله، وأكملهم عبوديةً لله عز وجل، وسيرته النقية هي المعيار الأعلى لتحقيق الغاية التي خُلق من أجلها الإنسان.

كان ﷺ مثلاً أعلى في أداء الأمانات وتحمل المسؤوليات رغم عظمها وتعددتها. فقد جعله الله تعالى:

● رسولاً للعالمين ﷺ،

● وقائداً سياسياً وعسكرياً،

● ومربيًا ومعلمًا،

● وزوجاً لعدة زوجات،

● وأبًا لأربعة بنات وثلاثة أولاد،

● وجدًا لأحفاد.

ومما يلفت الانتباه في سيرة النبي محمد ﷺ، أنه أدى أدوارًا شديدة التنوع والتعقيد، من قيادة الجيوش، إلى إدارة الدولة، إلى التوجيه الروحي والتربوي، وكل ذلك في وقت واحد. وقد نجح ﷺ في كل هذه المجالات معًا؛ وهذا النجاح الشامل لم يكن ليتحقق لولا وضوح مركز القرار وتوحد النية.

فحين يكون مركز قرارات الإنسان مشتتًا أو محدودًا، فإن التوازن يصبح مستحيلًا. فمن يجعل الثروة مركز حياته، قد ينجح في التجارة، لكن على الأرجح سيفشل في إدارة أسرته، لأن الأسرة لا تُبنى بالمال فقط. المال مهم، لكنه غير كافٍ. ومن يجعل نفسه أو المجتمع أو الجاه مركزًا له، فلن يسلم من التضارب والتناقض. لكن حين يكون الله هو مركز القرار والوجهة، فإن جميع الأدوار تتسق وتتوحد، لأن الله أمر بالصدق، والعدل، والرحمة، والوفاء، في كل مجال. وهذا هو ما تمنحنا إياه الإيمان بالله: منهجًا وقيماً ومنظومة متكاملة لنبلغ بها أحسن نسخة من أنفسنا، ونحقق بها الغاية من وجودنا كبشر.

ولإثبات هذه النظرية، جاء هذا الكتاب ليعرض سيرة النبي ﷺ من خلال أدواره المختلفة، لأننا نعتقد أن اتساق هذه الأدوار هو انعكاس طبيعي لوحدة المركز: رضا الله عز وجل.

ولهذا، فإن فصول هذا الكتاب منظمة حسب الأدوار التي أداها النبي ﷺ في حياته. سندرسه ﷺ كابن، وكزوج، وكأب، وكقائد، وكسياسي، وكمعلم، وكصاحب دعوة، وكرب أسرة، وغير ذلك من الأدوار التي تشكّل حياة الإنسان.

لكن من المهم الإشارة إلى أن بعض هذه الأدوار موثقة أكثر من غيرها، بحكم طبيعة المرحلة التي عاشها النبي ﷺ خلالها.

فالعشر سنوات الأخيرة من حياته في المدينة، حيث نشأت الدولة الإسلامية، موثقة بتفاصيل كثيرة.

أما الثلاثة عشر سنة المكية، فقد كانت سنوات اضطهاد وتكتم، والمعلومات عنها أقل.

وما قبل البعثة – الأربعون سنة الأولى – فهي الأقل توثيقاً، إذ لم يكن ﷺ نبياً بعد، وكانت حياته خاصة وعائلية.

ورغم هذا التفاوت في حجم المعلومات بين الأدوار، إلا أن القارئ سيلمس خيطاً ناظماً يربطها جميعاً: ثبات القيم، واتساق الأخلاق، ووحدة النية.

وهذا هو ما سنسعى إلى استكشافه في الفصول القادمة، بإذن الله.

١- الابن

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي و هم من سلالة سيدنا اسماعيل بن سيدنا إبراهيم اللذين بنيا الكعبة لعبادة الله وحده.

قرر جد الرسول عليه الصلاة والسلام عبد المطلب تزويج ولده عبد الله فاختر له امنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة زعيم قبيلة زهرة و كبيرهم و اشرفهم.

بعد الزواج بقليل، اضطر عبد الله ان يخرج الى تجارة في الشام فترك زوجته و هي حامل و غاب لعدة شهور في رحلة. عند عودته، توقف ليستريح في يثرب حيث يعيش اخواله، ثم استعد للعودة الى مكة و لكنه مرض.

عندما وصلت القافلة الى مكة علم عبد المطلب بغياب ولده عبد الله و مرضه فارسل اكبر ابنائه الحارث الى يثرب لكي يرافق عبد الله في عودته الى مكة بعد استراحتة. و لكن بعد ان وصل الحارث اخبر بوفاة اخيه و

بانه دفن في يثرب بعد انطلاق القافلة الى مكة بشهر. رجع الحارث الى مكة ليعلن وفاة عبد الله الى ابيه العجوز و زوجته الارملة آمنة.

بعد ان وضعت امنة مولودها، بعثت الى جده عبد المطلب ففرح فرحا شديدا و اخذه الى الكعبة و سماه محمد.

بعد ذلك اعاده لأمه و انتظر معها لوصول المرضعات من قبيلة بني سعد و كانت حليلة السعدية هي المرضعة التي احتضنت المولود كما كانت عادة اشراف مكة.

و لما بلغ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من العمر ستة سنين تقريبا، اخذته امه امنة الى يثرب لزيارة اخواله من بني النجار. اخذت معها كذلك في هذه الرحلة ام ايمن، الجارية التي خلفها لها زوجها عبد الله. في يثرب حيث البيت الذي توفي فيه والده و القبر الذي دفن فيه حينذاك شعر عليه الصلاة و السلام باليتم. و لعل امه حدثته عن ابيه المحبوب الذي غادر بعد فترة قصيرة من زواجهما و توفي بين اخواله في يثرب. بعد ان مكثت في يثرب شهرا، استعدت امنة للعودة الى مكة مع ابنها و جاريتهما على ظهر بعيرين. في الطريق، مرضت امنة بالابواء حتى توفيت و دفنت هناك.

فكانت ام ايمن هي التي اخذت الطفل اليتيم الى مكة، الذي فقد الان امه بعد ابيه. لعله كان قبل ايام يستمع الى امه تحدثه عن فقدانها الزوج و هو لم يولد بعد ثم هاهو الان يحضر وفاتها فيزداد حزنا لفقدانها معا. خمسون سنة مضت، كان الرسول عليه الصلاة و السلام يسافر مع اصحابه في طريق المدينة الى مكة. عندما مروا من المكان الذي دفنت فيه السيدة امنة، وقف رسول الله عليه الصلاة والسلام فوقف وراءه جيش المسلمين ثم خرج عن الطريق و معه بعض اصحابه حتى وصل الى قبر فجلس. بعد قليل، بدا عليه الصلاة و السلام يبكي ثم يبكي و يبكي و جسده الشريف يهتز من شدة البكاء. لما شهد الصحابة ذلك بداوا يبكون كذلك حبا في رسولهم و هم لا يفهمون ما هو سبب البكاء الى ان اقترب سيدنا عمر رضي الله عنه منه فعانقه و عزاه حتى هدا ثم سالوه: "ما جعلك تبكي يا رسول الله؟" فاجابهم انه قبر امه و بعد ذلك الموقف رفع رسول الله عليه الصلاة والسلام النهي عن زيارة القبور عسى ان تذكر بالآخرة.

بعد ان اكتشفت كيف ان خير خلق الله اصبح يتيما في هذه السن المبكرة، تساءلت لماذا؟ لماذا اراد الله ان يبتلي خير خلقه بهذا الابتلاء العظيم؟ بحثت عن احوال اليتامى و نفسياتهم فاكتشفت انهم اكثر ميلا للياس و الهم و الحزن و الانعزال عن الآخرين. و هذه الاحاسيس السلبية و النفسيات الضعيفة هي نتيجة احساسهم

بالضياع و التخلي. فعندما قرأت عن صفات الرسول عليه الصلاة و السلام عندما كبر، حصلت على الجواب عن سؤالى. اكيد ان يتم الرسول عليه الصلاة و السلام قد زاده تعلقا بالله سبحانه و تعالى و احساسا و تعاطفا مع الضعفاء و الايتام بصفة خاصة. و من الناحية العاطفية كان لجدّه و عمه دور كبير في تخفيف فقدانه الابوين و سد هذا الفراغ ثم زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها التي كانت الى جانبه دائما و التي ستلعب دورا في منتهى الاهمية خلال رسالته.

فتقوية امانه التي نتجت عن غياب والديه خلقت عنده نفسية قوية و صابرة التي ستلعب دورا من منتهى الاهمية خلال رسالته حيث فقد عمه ثم زوجته ثم ابنائه و بناته و لكن لن يستسلم ابدا بالقيام بالمهمة التي منح له الله سبحانه و تعالى. من جهة اخرى، الالم الذي عاشه كيتيم خلق عنده في سن مبكرة احساسا عميقا، خاصة تجاه اضعف عناصر مجتمعاتنا و منهم الايتام لانه يعلم ما يشعرون به و هذا يبين لماذا المجتمعات المسلمة اكثر تضامنا من المجتمعات الاخرى.

في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[1].

أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، برقم (2983).
ان هذا الاحساس العميق مكنه كذلك عندما كبر ان يفهم بسرعة احساس من حوله و هذه من اهم مميزات الزعماء. بالفعل، ان لم تكن لرسول الله عليه الصلاة و السلام القدرة العجيبة التي انعمه الله سبحانه و تعالى بها ان يكتسب حب الناس و يوحدهم بذكائه العاطفي ربما كانت مهمته اصعب بكثير!
قال الله سبحانه و تعالى لرسوله عليه الصلاة و السلام في سورة آل عمران، اية ١٥٩:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩

فسبحان الله العظيم هنالك حكمة تبين لنا الايجابيات التي تنتج عن التوكل و الاعتصام بالله سبحانه و تعالى خلال الابتلاءات. التوكل على الله سبحانه و تعالى يجعل الصعاب تنقلب الى ميزات و نعم. بالفعل، لو لم يعيش رسولنا عليه الصلاة و السلام هذه الابتلاءات في طفولته ربما لم يتقرب الى الله سبحانه و تعالى بهذا العمق و ربما لم تقوى نفسيته و احساسه العميق. و الله اعلم...

٢- الزوج

كبر رسولنا محمد ﷺ تحت رعاية عمه أبي طالب الذي كان فقيرًا وكثير الأبناء. سمع أبو طالب يومًا أن خديجة بنت خويلد، وهي امرأة ذات شرفٍ وثروة، تستأجر رجالًا من قريش للتجارة مقابل حصة من الأرباح. كانت خديجة قد تزوجت مرتين وأصبحت من أغنى أهل مكة. وقد رفضت كثيرًا من الخطّاب من قريش، مفضّلة البقاء بمفردها لعدم ثقتها بمن حولها من الرجال.

لما علم أبو طالب أنّ خديجة تُجهّز قافلة إلى الشام، اقترح على ابن أخيه محمد ﷺ — وكان حينها في الخامسة والعشرين — أن يعرض خدماته عليها، فوافق. وحين توجّه أبو طالب إلى خديجة وعرض عليها أن تستأجر محمدًا ﷺ، وافقت مسرورة لما عُرف عنه من أمانةٍ وخلق.

في رحلته التجارية الأولى لخديجة، حقّق محمد ﷺ نجاحًا كبيرًا فاق التوقعات بفضل أمانته وحكمته في التجارة، حتى أثنى عليه مرافقه ميسرة وأخبر خديجة بكل ما رآه من أخلاقه الرفيعة.

سرعان ما تحوّل تقدير خديجة لأخلاق محمد ﷺ إلى محبة عميقة واحترام كبير. ورغم أنها كانت قد ردت سابقًا العديد من رجال مكة المعروفين بنسبهم ومكانتهم، إلا أنها وجدت في محمد ﷺ الشخصية التي طالما بحثت عنها، وأرادت الزواج به. تحدّثت بذلك إلى أختها وصديقة لها اسمها نفيسة.

توجهت نفيسة إلى محمد ﷺ وسألته بأسلوب رقيق: «ما يمنعك من الزواج؟» فقال ﷺ بكل تواضع: «ما بيدي ما أتزوج به.» فقالت: «فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تُجيب؟» فقال: «فمن هي؟» فقالت: «خديجة.» فسُرّ محمد ﷺ بهذا العرض الكريم، وكان يعرف مكانة خديجة وفضلها بين أهل مكة، فأبدى قبوله وترحيبه بهذا الزواج.

اجتمع أعمام محمد ﷺ مع عم خديجة لإتمام الزواج المبارك. وأصدق محمد ﷺ خديجة عشرين بكرة، وانتقل بعدها إلى بيتها لتبدأ مرحلة جديدة من حياتهما.

رُزقا معًا بالبنيين والبنات. توفي ابناهما القاسم وعبد الله صغيرين، وكبرت بناتهما في كنف أبيهن وسط حبه وحنانه. وكانت خديجة تجمع في تعاملها معه بين الحب والاحترام الكبير، فأصبح زواجهما مثلاً يُقتدى به في الوفاء والتفاهم.

ولمست خديجة فيه صلّى الله عليه وسلّم أخلاقاً عظيمة وتأملاً عميقاً، مع هيبَةٍ واحترام شديدين من الآخرين له، وقد صدق الله تعالى إذ قال في وصفه خلقه العظيم:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (سورة القلم، 4)

أعفت السيدة خديجة زوجها محمداً صلّى الله عليه وسلّم من عبء إدارة تجارتها، وتولّت ذلك بنفسها كما كانت تفعل من قبل، مانحةً إيّاه الوقت الكافي للتأمل والتفكير. وكان لهذا الزواج أثرٌ عظيمٌ في استقراره النفسي والاجتماعي، إذ أغناه الله بذرية صالحة، واكتملت مكانته بنسبه الشريف وشخصيته الفذة، فأصبح صلّى الله عليه وسلّم محبوباً ومقدّراً في مجتمعه المكي، يشارك الناس حياتهم اليومية وهمومهم.

وقد ازداد محمد صلّى الله عليه وسلّم بزواجه من خديجة تواضعاً وهيبَةً في آنٍ واحد. كان يستمع بانتباهٍ شديدٍ لكل من يُكلّمه، ولا يُقلّل من شأن أحد. يتكلّم قليلاً ويُنصت كثيراً، ويميل إلى الجدّ في قوله، لكنه لم يكن يمتنع عن مشاركة الناس في ابتساماتهم ومُفاكهتهم. كان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه، لكن غضبه لا يظهر إلا بنفرةٍ عرق بين حاجبيه، إذ كان يكظم غيظه ولا يُظهر غضبه، حرصاً على مشاعر من حوله.

تميّز صلّى الله عليه وسلّم بالإخلاص وحبّ الخير، والكرم، والثبات وقوّة الإرادة. إذا قرّر شيئاً، تمسّك به دون تردّد. وكلّ من عاشه عن قرب أعجب بصفاته، ومن رآه عن بعد هابه، ومن خالطه أحبه. هذه الصفات كانت سبباً في تكوين علاقة نادرة وقوية مع زوجته خديجة، علاقة تميّزت بالوفاء والمودة والتقدير المتبادل.

وبعد زواجهما، أهدت السيدة خديجة إلى زوجها محمد صلّى الله عليه وسلّم غلاماً هو زيد بن حارثة، فأعتقه النبي صلّى الله عليه وسلّم وتبنّاه، وعاش زيد في كنفهما وكان من أحبّ الناس إليهما.

كانت حياته صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة تنسم بالطمأنينة والاستقرار بفضل بيته الهادئ وزوجته المحبة المخلصة. وقد ساعده هذا الاستقرار الأسري على التفرغ لعمق التفكير والتأمل فيما يجري حوله، وما كان يسمعه ويراه من حوار الناس وأحوالهم، حتى صار يستعدّ روحياً لما سيُكلفه به الله تعالى من رسالة عظيمة. في هذه الفترة، اعتاد محمد صلى الله عليه وسلم أن يختلي بنفسه في غار حراء بجبل يبعد حوالي ثلاثة كيلومترات عن مكة، يقضي فيه أياماً طويلة في رمضان، يُرسل له الطعام القليل، منقطعاً للتأمل في الكون من حوله. وكانت هذه الخلوة والتأملات جزءاً من استعداداته الروحي للرسالة التي اختاره الله لها، وكانت خديجة رضي الله عنها تدعمه وتوفر له كل الظروف الملائمة لذلك.

لم يكن صلى الله عليه وسلم يتوقع أن يجد نور الحق في مقولات الرهبان أو كتبهم، بل وجده في تأملاته للكون من حوله: في السماء ونجومها، في الصحراء وسكونها، في البحر وأمواجه، وكل ما يدل على وحدانية الخالق. لقد أدرك أن قومه في ضلال، وأن آلهتهم لا تنطق ولا تنفع، فامتأ قلبه حزناً عليهم واشتياقاً إلى هداية من الله. كانت هذه الخواطر تملأ كيانه، فتبعده عن ضجيج الحياة اليومية، وتثقله بأعباء التساؤل والبحث عن الحق. وعندما كان يعود بعد خلواته الطويلة، خاصة بعد رمضان، كانت السيدة خديجة تلاحظ على وجهه آثار التعب الروحي، فتبادره بالسؤال والاطمئنان، فينعكس في بيتها الأمان والحنان.

*حرم التنبّي لاحقاً في الإسلام، كما جاء في قوله تعالى:

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) (سورة الأحزاب، 5)

دعا صلى الله عليه وسلم ربّه في خلواته ليلاً ونهاراً، وصام، وسار في ممرات الصحراء متفكراً، ثم يعود إلى حراء حيث يستكمل اعتكافه. ومع مرور الأشهر، ثقل عليه الحمل، وخشي على نفسه من كثرة ما يرى ويشعر، ففضفض بمخاوفه للسيدة خديجة، فكانت له مؤثلاً وملاذاً، تُطمئنه بكلمات الوفاء واليقين: "والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".

لم يكن صلّى الله عليه وسلّم يتصور أن كل هذه الخلوات والآلام كانت تهيئة ربانية ليوم النبا العظيم. وفي غار حراء، نزل عليه الوحي، ففزع، وعاد إلى بيته وهو يقول: "زملوني زملوني". فاحتضنته السيدة خديجة بكل ما في قلبها من حنان وطمأنينة. لم تشك فيه لحظة، بل آمنت به قبل أن يعرفه الناس، ووقفت إلى جواره في أشدّ لحظات ارتباك وخوفه.

كان هذا الموقف، بكل تفاصيله، درساً في الاخلاص و المودة و السكينة الزوجية: كيف يكون البيت مأوى الرسالة، والزوجة سنداً نفسياً وروحياً. في لحظة نزول الوحي، لم يكن النبي صلّى الله عليه وسلّم رسولاً أمام الناس فقط، بل كان زوجاً محتاجاً للطمأنينة، فوجدها في قلب زوجته.

ثم نام صلّى الله عليه وسلّم في حضن الطمأنينة، ليصحو بعد ذلك على حياة جديدة، مليئة بالوحي والرسالة والجهاد والدعوة، لكن جذورها الراسخة كانت في بيت آمن، تشع منه الطمأنينة والصدق، وتحتضنه زوجة آمنت به قبل أن يعرفه العالم.

طفقت السيدة خديجة تستعيد في خيالها ما قصّ عليها زوجها، وتتخيل ذلك الملك الذي تجلّى له في السماء، والكلمات التي أوحيت إليه ونقشت في صدره، والمهابة التي ارتسمت على ملامحه. كانت تنتقل بين الأمل والرجاء، والخوف والشفقة، حتى غلبها القلق، فذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، لما عُرف عنه من حكمة وعلم بالإنجيل.

ولما سمع ورقة ما روته، قال مطمئناً: "لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيّ هذه الأمة، فقلّي له فليثبت." عادت خديجة إلى بيتها، فوجدت النبي صلّى الله عليه وسلّم ما يزال نائماً، وحدقت فيه بعينٍ ملؤها الحب والإشفاق، وبينما هو في نومه، إذ سمع صوت الوحي مرة أخرى يناديه:

"يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)..."

ازداد قلق خديجة عليه حين رأتَه يرتجف من أثر الوحي، فطلبت منه أن يعود إلى فراشه ليرتاح. لكنه قال لها بما يشبه إعلان الانتقال من السكينة إلى التكليف:

"انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس."

كانت تلك اللحظة حاسمة. خديجة لم تتردد، بل سارعت تُهَوِّن عليه وتُثَبِّته، وقصّت عليه ما قاله ورقة، ثم أعلنت له، من قلبها المؤمن، إسلامها وتصديقها بنبيّوته.

لقد كان إيمانها طبيعياً؛ فقد عرفته أميناً، صادقاً، متعفّفاً، مشغولاً بالحق، متأملاً في الكون، مبتعداً عن ضلالات الجاهلية. رأته في سنوات تحنّته، ورأته في لحظة نزول الوحي، ورأته أيضاً حين اختبرته بوضعه على فخذه، ثم حجرها، ثم كشفت خمارها لتتحقّق من أن ما يراه ليس شيطاناً، بل ملك من عند الله.

وفي لحظة لاحقة، لقي النبي ﷺ ورقة بن نوفل، فجّد له القول: "إنك لنبيّ هذه الأمة... ولتكذب، ولتؤذنين، ولتقاتلن." فشعر النبي ﷺ بثقل ما أُوحي إليه، وطفق يُفكّر: من ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لي؟

وحين فتر الوحي بعد ذلك، أصابه الحزن، وشعر بالقلق: هل قلاه ربّه؟ عاد إلى حراء يطلب وجه ربه ويسأله، وشاطرته خديجة هذا القلق، وكانت إلى جانبه دوماً، تشاركه خشيتها وتؤنس وحشته.

ثم نزل عليه الوحي من جديد بسورة الضحى، فجاءه الجواب الإلهي الذي بدّد خوفه، وأعاد الطمأنينة إلى قلبه:

"مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3)"

لقد تولاه الله بعنايته، وأزال كل روعه، فعادت إلى وجهه ابتسامة الرضا، واستقرت في قلبه السكينة.

وهكذا ظلّ الإسلام، في بدايته، في بيتٍ صغير، لكنه كبير بالحق واليقين: النبي ﷺ، وزوجه المؤمنة خديجة، وبناته، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة.

لم تكن السيدة خديجة مجرد زوجة بل أول مؤمنة، وأول داعمة، وأول من صدّق بنور الوحي حين لم يعرفه أحد. وهكذا تجلّى معنى العبودية في دور النبي ﷺ كزوج: بيت يحمل الرسالة قبل أن تحملها الأمة.

كان رسول الله ﷺ يعتصم بخديجة في داره كما يعتصم من أذى قريش بقومه. فقد كانت له بسكينة إيمانها وصدق حبها وزير صدقٍ تواسيه في همّه، وتقوّي قلبه في لحظات الضعف أمام أذى قومه وإصرارهم على محاربة دعوته.

وفي السنة السابعة من البعثة، اشتد البلاء. وقّعت قريش وثيقة قاطعة بمقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، دعمًا لمعاداتهم للنبي ﷺ. ودام الحصار ثلاث سنوات قاسية، عانى فيها النبي ﷺ وأهله الجوع والحرمان في شعب أبي طالب. ومع ذلك، بقيت خديجة معه، تقاسمه الألم دون تردد، مؤمنة برسالته، مطمئنة إلى وعد ربها.

ثم انفرج الحصار بفضل الله، ولكن لم تمضِ شهور حتى فُجع النبي ﷺ في عامٍ واحدٍ بأعزّ اثنين عليه: عمّه أبو طالب، وزوجه خديجة رضي الله عنها. فكان ذلك عام الحزن.

لقد جسّدت خديجة في زواجها من النبي ﷺ معنى السكن والموّدة والرحمة التي وصفها الله في قوله:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً..." [الروم: ٢١]

كان ﷺ يلقي في خارج بيته عداوة وصراعًا، فإذا دخل على خديجة، عاد إليه السكون. كانت طمأنينته، مأمّنه من الخوف، ومصدر استرجاع قوته ليستأنف طريقه من جديد.

حين نزل عليه الوحي لأول مرة، دخل عليها مرتجفًا، فقال: "زملوني"، فاحتوته بثباتها، وقالت: "أبشر يا ابن عم واثبت... والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتُفري الضيف، وتعين على نوائب الحق."

ذكّرت به بمن يكون، طمأننته أن الله لا يخذل عبدًا مثله. وهكذا كانت عبادته ﷺ لله تمرّ من خلال علاقته بزوجته: في ثقته بها، وفي بحثه عن الطمأنينة في حضنها، وفي استمداده القوة من رحمتها.

ضحت خديجة رضي الله عنها بمالها ومكانتها في سبيل نصره هذا الدين، وعاشت معه أيام الجوع والحصار حتى توفيت في تلك الظروف القاسية، مخلصًا له حتى اللحظة الأخيرة.

لم تُدرك معه نصر الدعوة، ولا فتح مكة، لكنها آمنت يقيناً أنه سيقع، وأن ما عند الله خير وأبقى. وكما قال تعالى:

"وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى" [الضحى: ٤]

فإن لم تحظْ خديجة بثمرات دعوتها في الدنيا، فلها الفردوس في الآخرة، مع من أحببت، ورضي الله عنها.

لم ينسَ رسول الله ﷺ فضل خديجة رضي الله عنها أبداً، حتى بعد أن هاجر إلى المدينة وتزوج غيرها. ظلت ذكراها حيّة في قلبه، وكانت محبتها جزءاً من عبادته لله، لأنه لم يكن ينسى المعروف، ولا ينقض عهد الوفاء.

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

"ما غرتُ على أحد من نساء النبي ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يُقَطِّعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد." [البخاري]

وكان ﷺ يقول إذا ذبح الشاة:

"أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة." [مسلم]

وحين استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على النبي ﷺ، فارتاح لصوتها وتذكر أخت زوجته فقال:

"اللهم هالة بنت خويلد." [مسلم]

وحين غارت عائشة يوماً فقالت له: "ما أكثر ما تذكر خديجة، وقد أبدلك الله خيراً منها!" أجابها ﷺ:

"ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بماله إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد." [أحمد]

وكان يقول عن أي شيء يُؤتى به:

"اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت تحب خديجة." [صحيح]

وفي موقف مؤثر، حين بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ قلادة خديجة في فداء زوجها، رقى قلب النبي ﷺ، وقال لأصحابه:

"إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا." [فعلوا. [أحمد]

قال الإمام النووي تعليقاً:

"في هذا الحديث دلالة على حسن العهد، وحفظ الودّ، ورعاية حرمة الصاحب حياً أو ميئاً."



وحين بيّن الله في كتابه صفات البيوت الضعيفة، شبّه من يتخذ من دون الله أولياء ببيت العنكبوت:

"وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" [العنكبوت: ٤١]

ولم يكن الوصف منصرفاً إلى ضعف الخيوط فحسب، بل إلى ضعف السكن والعلاقات داخله. فقد كشف العلم الحديث أن أنثى العنكبوت تقتل زوجها بعد التزاوج، وأن صغارها يفتكون بها بعد ولادتهم. لا سكن، لا طمأنينة، لا رحمة. بل هي علاقات تفترس فيها الأنانية الحب، ويحل العنف محل الرحمة.

ومن هنا، قال النبي ﷺ:

"تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك." [البخاري]

فالدين هو الضمان الحقيقي للسكن، لأنه وحده القادر على تثبيت المودة حين تهتز العواطف، وحفظ الرحمة حين تبهت القلوب. كما قال الحسن البصري:

"من خاف الله، أكرم زوجته إن أحبها، ولم يظلمها إن كرهها."

وقال تعالى:

"وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً" – فالمودة عاطفة جاذبة، والرحمة عقل ثابت. فإذا خفّ الجمال، وغاب المال،

وضعف الجسد، بقيت الرحمة وفاءً وسنداً.

وهكذا، فإن السكن والمودة والرحمة هي الأسس التي يُبنى عليها الزواج الذي يُرضي الله، ويكون في ذاته عبادة.

٣- الاب

حرص النبي ﷺ على تزويج بناته بأزواج طيبين، حريصين على الخير، محافظين على الكرامة، حتى قبل البعثة. فزينب، ابنته الكبرى، تزوجت من أبي العاص بن الربيع، وهو من قومه المعروفين بالاستقامة والنجاح، وكانت أمه هالة، أخت خديجة رضي الله عنها. وكان الزواج مستقراً، حتى جاء الإسلام وفرّق بينهما، لأن أبا العاص بقي على الشرك. لكنها لم تكن نهاية القصة، فبعد أسره في بدر، عادت زينب لتقتديه بقلادة أمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ قلبه. فاستأذن الصحابة في إطلاقه وردّ المال والقلادة، ففعلوا. ثم طلب من أبي العاص أن يُخلّي بينه وبين زينب، ففعل، لكنه لم يسلم فوراً. بعد مدة، أعاد أموال قريش لأهلها ثم أسلم وعاد إلى المدينة، فجمعه النبي ﷺ مجدداً بزينب. وكان هذا المشهد شهادة على وفاء الأب وتعلقه العاطفي ببناته، دون أن تغيب عن قلبه طاعة الله وتطبيق شرعه.

أما رقية وأم كلثوم، فكانتا متزوجتين من عتبة وعتيبة، ابني أبي لهب. وبعد ظهور الإسلام، أمر أبو لهب ابنيه بتطليقهما نكاحاً في رسول الله ﷺ، فطلقاهما، فتزوج عثمان بن عفان رقية، ثم بعد وفاتها تزوج أم كلثوم. وكان النبي ﷺ يرى في عثمان خلقاً نبيلاً، فزوجه ابنتيه تالياً. وأما فاطمة، فزوها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ذلك بعد البعثة، حين بلغت سن الزواج، واختار لها النبي ﷺ رجلاً من أهل الإيمان والتقوى والقرب منه.

ورغم انشغالاته الكبرى وكفائد ورسول، كان النبي ﷺ أباً حنوناً، يُشعر أبناءه بالأمان والحب، ويقابل مشاعرهم بعناية ورعاية صدر. بعد وفاة خديجة وأبي طالب، زادت قريش في إيذائه، حتى جاءه أحد سفهاء قريش يوماً فرمى التراب على رأسه. عاد إلى بيته والتراب على رأسه، فأقبلت فاطمة إليه تُزيل ما على رأسه من التراب وهي تبكي، فطمأنها بقوله: "لا تبكي يا بُنَيَّة، فإن الله مانعُ أبائك". لم يشتك، ولم يضعف، بل كان يربّي ابنته على الثقة بالله، ويعلمها أن الانتصار لا يكون بالبكاء بل بالتوكل والصبر.

في آخر حياته صلى الله عليه وسلم، كانت فاطمة تأتيه كل يوم تعود، وهو يئن من شدة الحمى. وكانت إذا دخلت عليه قام لها وقبلها وأجلسها في مجلسه. وفي مرضه الأخير، أسر لها بأنه سيموت، فبكت، ثم أسر لها أنها أول من سيلحقه من أهله، فتنبست. في تلك اللحظات، نرى عمق العلاقة بين الأب وابنته، لكنها لم تكن علاقة دنيوية فقط، بل كانت علاقة تقوم على الإيمان والمصير الأخروي، فهي فرحة بقاء قريب في الجنة، لا حزينة على فراق دنيا زائلة.

ولما اشتد عليه الوجع، وكانت فاطمة تقول: "وا كرب أبتاه!"، أجابها بقلب مطمئن: "لا كرب على أبيك بعد اليوم". بهذه العبارة، يعلمها أن الألم مؤقت، وأن الراحة الحقيقية في لقاء الله.

كل المواقف التي جسدها النبي صلى الله عليه وسلم كأب، من تزويج بناته، إلى تهوين المصائب عليهن، إلى عنايته بفاطمة في مرضه الأخير، لم تكن تصرفات نابعة فقط من العاطفة، بل كانت عبودية لله في مقام الأبوة. العبودية لا تعني فقط تطبيق الأوامر، بل تطبيقها بروحها، وأسلوبها، ومقاصدها. فالله لا يريد منا فقط أن نحسن إلى أولادنا، بل يريد أن يكون هذا الإحسان مفعماً بالرحمة، بالحكمة، وبالرفق الذي يليق بكرامة الإنسان.

قال تعالى:

[وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا] [البقرة: 83]

[فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ] [آل عمران: 159]

[وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] [البقرة: 195]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" (رواه الترمذي)

وهكذا نرى أن الأبوة في الإسلام ليست مجرد رعاية مادية أو قرارات سلطوية، بل هي مقام تعبدية، نرضي به الله حين نرضي أبناءنا بما يحب الله: بالرحمة، بالحكمة، وبالخلق العظيم. فإن الله لا ينظر إلى المضمون فقط، بل إلى الأسلوب الذي نبلي به هذا المضمون. كما أن الإنسان كائن معقد، يحمل مشاعر دقيقة، فإن

الرسالة الربانية لا تكتمل إلا إذا جاءت في محتوى صحيح وفي غلاف كريم، وهذا ما فعله النبي ﷺ :
جمع بين العدل والرحمة، بين التعليم والتفهّم، بين الحزم والحنان.

بهذا الاتزان، يُصبح دور الأب عبادة. لا بإرضاء الأبناء فقط، ولكن بإرضاء الله من خلالهم، لأن الإحسان إلى الأهل، والرفق بالأبناء، من أحب الأعمال إلى الله. هكذا كان رسول الله ﷺ : نموذجًا متكاملًا للعبودية في كل دور من أدواره، ومن أعظمها... دوره كأب.

٤- رسول الله

بعد سبع سنين من الرسالة لم يتبع رسول الله ﷺ الا سبعون شخصا و كان اغليبتهم من المستضعفين.
رغم الجهود و التضحيات و الصعوبات كانت للرسول النتائج قليلة.
و في السنة العاشرة من الرسالة، فقد الرسول عليه الصلاة و السلام عمه أبا طالب الذي كان يدفع عنه أذى قريش ثم فقدان زوجته خديجة بنت خويلد التي كانت تسانده في الدعوة.
و كثر مساءات قريش من بعد ذلك لسيدنا محمد عليه الصلاة و السلام حتى ضاق بهم ذرعًا فخرج إلى الطائف وحيدًا منفردًا لا يعلم بأمره أحد، يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة، ويرجو إسلامهم، لكنه رجع بشرّ جواب. فرجاهم ألا يذكرُوا من استنصاره

بهم شيئًا حتى لا يشمت به قومه. ولم يسمعوا له بل أغروا به سفهاءهم يسبونهم
ويصيحون به؛ ففر منهم إلى حائط لعنبة وشيبة ابني ربيعة فاحتُمى به، فرجع
السفهاء عنه. وجلس إلى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو
فيه من شدة الكرب. فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسه إلى السماء ضارعًا في شكاية وألم وقال:
"اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبُّ
الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَيَّ مَنْ تَكَلَّنِي ؟ إِلَيَّ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ؟ أَمْ إِلَيَّ عَدُوٌّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ

عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزَلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَجَلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ"

فتخليلوا لحظة رجلا و هو قريب من الخمسينات، عالي الاخلاق و الكرامة يسافر الى مدينة بعيدة ليدعو اهلها الى خير المئاب و هو غير طالب منهم شيئا بالمقابل فهو لاء لم يكتفوا بالرفض فقط بل يحرشوا عليه اطفالهم ليخرجوه من المدينة تحت رمي الحجر. تخليلوا موقفه و احساسه بالوحدة و احساسه بالحزن. فسبحان الله، كانت نفس الرسول عليه الصلاة و السلام لا تحركها ما يظن الناس عنها و لكن ما يظن الله فقط:

"ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي"

في قلب عاصفة صعوبات الدنيا لا يهمله الا شيء واحد و هو رضى الله. خوفه الوحيد هو ان تلك الصعوبات تكون نتيجة غضب الله عليه. سبحان الله رب العظيم..

فهذه العلاقة الخاصة بينه و بين خالقه كانت السبب ان صعوبات الدنيا لن تصل اليه و لن تشككه في نفسه في لحظات العسر. و بنفس الطريقة، لن يتكبر ابدا ان نجح لان الله سبحانه و تعالى دائما في باله لن يرجو الا رضاه.

٥- قائد الدولة

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [الشرح: 5-6]

بعد ثلاث عشرة سنة من الصبر بمكة، جاء الفرج بالهجرة إلى يثرب. هناك بدأ النبي ﷺ بناء مجتمع على أساس الإيمان لا العصبية: آخى بين المهاجرين والأنصار، وجعل المسجد قلب الحياة، وكتب «وثيقة المدينة» التي ضمنت التعايش والعدل والدفاع المشترك. ومع تزايد الضغط الخارجي من قريش، حفظ ﷺ ما استطاع، وأرسل سرايا محدودة لحماية الطريق وتأمين الدعوة، واضعًا ميزان القوة: (وَقَاتِلُوا [فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا] [البقرة: 190]

لكن قريشًا واصلت الحصار والاعتداء ومصادرة أموال المهاجرين، فصار لا بد من خطوة استراتيجية تقلب ميزان الردع. هنا تبدأ صفحة القائد العسكري: موقفٌ حازم لحماية الدين والمدينة، مع قلبٍ معلق بالله لا يطلب مجداً شخصياً.

في هذا السياق، رصد النبي ﷺ تحركات قافلة تجارية كبيرة لقريش يقودها أبو سفيان عائدة من الشام، وقد اشترك فيها معظم أهل مكة. أرسل النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لاستطلاع أمرها، لكنه لم ينتظر عودتهما، بل حثَّ المسلمين على الخروج لاعتراض القافلة. هذا التحرك لم يكن بدافع الطمع بل كان استجابةً لتحذُّرٍ سياسي واقتصادي مباشر من قريش، واختباراً لقوة المسلمين الناشئة.

في المقابل، تحركت قريش بسرعة بعد أن أبلغهم رسول مستأجر بخبر النبي ﷺ، فهبَّ أبو جهل يستنفر أهل مكة للدفاع عن أموالهم. وعلى الرغم من تردد بعضهم خشية مهاجمة كنانة من الخلف، ضمن مالك بن جعشم الأمان، فخرجت قريش في حملة واسعة لمواجهة النبي ﷺ.

▪

خرج النبي ﷺ من المدينة في الثامن من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وترك عمرو بن أم مكتوم يصلي بالناس، واستعمل أبا لبابة على المدينة. وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، يتعاقبون على سبعين بعيراً، يتوزعون ركوباً ومشياً في مشهد يدل على التواضع والتقشف. وكان النبي ﷺ يشارك أصحابه في العناء، يعتقب بعيراً مع علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد.

تحرك الجيش بهدف اعتراض قافلة تجارية لقريش يقودها أبو سفيان، لكن الأخبار بلغتهم في وادي "ذفران" أن قريشاً خرجت بكل ثقلها لحماية القافلة. عندها تحوّل الموقف من غزوة على قافلة إلى مواجهة عسكرية محتملة مع جيش يفوقهم عدداً وعتاداً.

استشار النبي ﷺ أصحابه، فتكلم أبو بكر وعمر، ثم المقداد بن عمرو الذي أبدى ثباتاً وولاءً. لكن النبي ﷺ أراد سماع رأي الأنصار، لأن بيعتهم لم تشمل القتال خارج المدينة. عندها قام سعد بن معاذ، زعيم الأوس، وأعلن استعدادهم الكامل لخوض المعركة. فتهلل وجه النبي ﷺ وبشّرهم بنصر وعده الله به.

تابع الجيش تحرّكه نحو بدر، وأرسل النبي ﷺ فرق استطلاع لجمع المعلومات، فجاءه الخبر بأن قريشاً نزلت في العدو القصوى، وأن كبار قادتها كلهم خرجوا للمواجهة. استنتج النبي ﷺ من عدد الذبائح اليومية التي ينحرها جيش قريش أنهم يقاربون الألف رجل. وقال لأصحابه: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها"، مشيراً إلى جسامه الموقف.

وبينما كان بعض المسلمين لا يزال يطمح لغنائم القافلة، جاءهم خبر نجاة أبي سفيان وتحوّل المعركة إلى مواجهة مباشرة مع جيش قريش. في هذه اللحظة، نزل قوله تعالى:

(وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) [الأنفال: 7]

رغم أن القافلة نجت، أرسل أبو سفيان إلى قريش يقترح عليهم العودة، إذ زال السبب المباشر لخروجهم. وقد وافقه على ذلك عدد من قريش، غير أن أبا جهل رفض بشدة، وأصرّ على التقدّم إلى بدر لإثبات هيبة قريش أمام العرب، مع ما صاحب ذلك من أهداف استعراضية تتعلّق بالمكانة والسمعة. وبالفعل، استجاب له غالب القوم، وتخلّف فقط بنو زهرة بعد مشورة الأخنس بن شريق.

في المقابل، واصل النبي ﷺ وأصحابه سيرهم حتى نزلوا أدنى ماء من بدر. وقد يسّر الله لهم نزول المطر مما أعانهم على الاستعداد. وعندما اختار النبي ﷺ موقع النزول، أشار عليه الحُباب بن المنذر برأي عسكري أدقّ، يقضي بالنزول عند أقرب ماء إلى العدو، وبناء حوضٍ للماء، وردم الآبار التي وراءهم. وقد قبل النبي ﷺ هذا الرأي، ونفّذه، مشيراً إلى أن الحرب مشورة وتقدير، وليس وحياً بالضرورة.

ثم أشار سعد بن معاذ ببناء عريش للنبي ﷺ يكون فيه أثناء القتال، احتياطاً في حال لم تنجح المعركة، حفاظاً على القيادة واستمرار الرسالة. فقبل النبي ﷺ ذلك، ودعا له بالخير.

في هذه اللحظات، تجلّت سمات القيادة النبوية في أوضح صورها: حسن الاستماع للمشورة، التواضع، التخطيط العسكري، وتقدير المواقف بمرونة. كما أظهر أصحابه ثباتًا استثنائيًا أمام تفوّق العدو العددي، ووعيًا عميقًا بضرورة حماية القائد والمحافظة على وحدة الصف

بعدما نزلت قريش منازل القتال، ترددت أصوات العقلاء منهم كعتبة بن ربيعة في الحثّ على الرجوع، لكن أبا جهل رفض ذلك وأجّج نار القتال، فاندفعت قريش رغم نجاة القافلة. وتقدم الأسود بن عبد الأسد ليهدم حوض الماء الذي بناه المسلمون، فقتله حمزة رضي الله عنه، وكان هذا أول شرارة لمعركة فاصلة خرج عتبة وشيبة والوليد بن عتبة للمبارزة، فخرج إليهم حمزة وعليّ وعبيدة، فقتل المسلمون الثلاثة رجال قريش. عندها التحمت الصفوف، ووقف النبي ﷺ يعدّل الصفوف بيده، ويرشد أصحابه إلى الثبات والصبر.

ثم عاد النبي ﷺ إلى العريش يتضرّع إلى ربه، رافعًا يديه مستقبلاً القبلة، يناجي الله بصدق ويستغيثه:

"اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض"

فطمأنه أبو بكر، لكن النبي ﷺ ظلّ في دعائه حتى رأى رؤيا النصر. فخرج يبشر أصحابه ويحفّزهم:

والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله "الله الجنة"

وكان لتحريضه ﷺ أثر عظيم، فاندفع الصحابة ثابتين رغم قلة عددهم، لا يهابون الموت، بل يطلبون النصر أو الشهادة، يرون الجنة أقرب إليهم من أعدائهم

في قلب المعركة، ظل النبي ﷺ يقود أصحابه، ويوجههم، حتى أخذ حفنة من الحصباء فرماها في وجه قريش وقال:

"إشاهت الوجوه"

ثم صاح بأصحابه: "شدوا!". وكان هذا أمر الانطلاق، فاندفع المسلمون بنفحة من الإيمان جعلت كل واحد فيهم أقوى من عشرات، لأنهم رأوا المعركة عبادة، والجهاد سبيلاً لتحقيق وعد الله

نزل الوحي مؤيداً تلك اللحظة بقوله

(.فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

وانهارت صفوف قريش، وتحقق وعد الله بالنصر، فعاد النبي ﷺ إلى العريش يحمد الله، والمسلمون يطاردون فلول العدو، يأسرون من استطاعوا، ويثبتون دعائم الدولة الإسلامية لأول مرة على ساحة النصر

انتهت معركة بدر وقد حُسمت للمسلمين، فاستقر لهم بعدها الأمر في بلاد العرب، وكانت بداية توحيد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام، ومقدمة لحضارة غيّرت وجه التاريخ. ومع أن النبي ﷺ كان قائد المعركة ومحرضاً على الثبات، إلا أنه منذ اللحظة الأولى أوصى أصحابه بعدم قتل بعض رجال من قريش، حتى وإن قاتلوا، وخصّ بذلك بني هاشم وغيرهم ممن كان لهم موقف مشرف في الجاهلية، مثل نقضهم للصحيفة الظالمة، رغم بقائهم على الكفر. لم يكن ذلك محاباة، بل وفاء وعدلاً من قائد يدرك أن السياسة الراشدة تشمل ردّ الجميل، ولو من عدو

بعد أن فرّت قريش يجرّون أذيال الخيبة، بقي النبي ﷺ وأصحابه في بدر حتى المساء، ثم أمر بجمع القتلى من قريش ودفنهم في قليب واحد. وقضى المسلمون الليل في تنظيم الغنائم وحراسة الأسرى، بينما كان النبي ﷺ في خلوته يتأمل مجريات اليوم العظيم، ويرى كيف نصر الله القلة المؤمنة وثبت أقدامهم

:وفي تلك الليلة، خاطب النبي ﷺ قتلى قريش من القليب، يناديهم بأسمائهم فردّاً فرداً

"يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً"

فلما استغرب الصحابة من مناداته للأموات، قال:

"ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني"

وفي مشهد آخر، لاحظ النبي ﷺ تأثر أبي حذيفة عند سماع اسم والده عتبة بن ربيعة، فسأله عن حاله، فأجابه بأمانة أنه تألم لما آل إليه والده رغم رجائه له بالإسلام. فواساه النبي ﷺ بكلمات طيبات ودعا له بخير، في موقف يجمع بين الحزم في الحرب، والرأفة بالقلوب المتألّمة، وهو ما تميّزت به قيادة النبي ﷺ دائماً.

مع إشراقة الصباح التالي لغزوة بدر، ثار النقاش بين المسلمين حول الغنائم، إذ ادّعى كل فريق أحقيته بها: من جمعها، ومن طارد العدو، ومن بقي يحرس النبي ﷺ. فأمر النبي ﷺ بردّ كل ما جُمع إلى موضع مشترك حتى يُفصل فيه لاحقاً، واضعاً بذلك أسساً تنظيمية للعدل والانضباط وسط جيش حديث النشأة.

ثم أوفد النبي ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة إلى المدينة لإبلاغ المسلمين بالنصر، وواصل المسير هو وأصحابه ومعهم الأسرى والغنائم، حتى نزل في طريق العودة عند الصفراء، حيث وزّع النفل على المجاهدين. وقد راعى ﷺ في تقسيمه الإنصاف بين المقاتلين، وجعل لكل من شارك في النصر بنحوٍ من الأنحاء نصيباً، حتى من لم يشهد المعركة لعذر شرعي، وبهذا أسّس لمبدأ الموازنة الجماعية في حمل مسؤولية الدعوة والدولة.

وفي الطريق، أعدم اثنان من الأسرى: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، لمكانتهما في أذى المسلمين في مكة. لم يكن للنبي ﷺ قانون ثابت بعد بخصوص الأسرى، لكن الحزم الذي أبداه في التعامل مع من كانوا رموز الأذى والتعذيب، مثل النضر وعقبة، يبيّن أنه لم يكن قائد عفوّ مطلق، بل عرف متى يلين ومتى يشدد، بحسب مصلحة الرسالة.

قبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة، سبقته رسائل النصر عبر زيد وعبد الله، فدخل كل منهما من طرف يبشر أهل المدينة، بينما بثت قريش شائعات نفياً للخبر. إلا أن وصول النبي ﷺ والمسلمين أكد الحقيقة، فعمّ الفرح قلوب المؤمنين، وخيم الحزن على المنافقين واليهود.

وعند دخول الأسرى المدينة، ظهرت التوترات النفسية التي خلفها الصراع، ومنها ما بدر من سودة بنت زمعة حين رأت أحد الأسرى فقالت له ما يشبه العتاب، فنَبَّهها النبي ﷺ بلطف وحزم إلى أن الولاء بات لله ورسوله لا للعاطفة الجاهلية. وهو درس جديد في إعادة تشكيل الولاءات في ظل مشروع الأمة الوليدة

بعد غزوة بدر، وزَّع النبي ﷺ الأسرى على أصحابه وأوصاهم بالإحسان إليهم، ثم شرع في دراسة أمرهم: هل يُفدى الأسرى أو يُقتلوا؟ لم يكن في المدينة آنذاك قانون واضح لهذا النوع من القضايا، لذلك استشار النبي ﷺ أصحابه في الأمر.

عبر أبو بكر عن رأي يميل إلى الرحمة، مقترحاً قبول الفداء، مع أمل أن يهديهم الله للإسلام، بينما كان رأي عمر الحسم والقتل، لأنهم قادة الشرك وأئمة العدا. سكت النبي ﷺ أولاً، ثم شبه ميل أبي بكر بميكائيل في اللين، وميل عمر بجبريل في الحزم، ثم ترك للمجتمع المسلم أن يدرس الخيارين، وأعلن فيهم أن حال الأمة في فقر، وأنه لا يفوتهم أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضربة عنق.

وفي خضم هذه المشاورة، طلب أحد الأسرى، الشاعر أبو عزة الجمحي، العفو بسبب فقره ومسؤوليته عن بناته، فعفا عنه النبي ﷺ دون فداء بعد أخذ العهد عليه، إلا أنه نكثه لاحقاً في معركة أحد، فُقِّل حين أُسر مرة أخرى.

استقر الرأي في النهاية على قبول الفداء، ونزل في هذا القرار قوله تعالى:

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ)

[الأنفال: 67]

وقد فُسرَت الآية كتوجيه إلهي بعدم تقديم المصلحة المادية (الفداء) على مقتضيات الموقف الاستراتيجي، خصوصاً في المرحلة الأولى من بناء الدولة.

هذا الموقف النبوي يعكس عمق الحكمة القيادية؛ فالرحمة لم تكن غائبة، لكنها كانت دوماً موزونة بالمصلحة العليا. فالعفو جميل عندما يكون القائد في موقف قوة، أما حين تكون الرسالة في بداياتها، فالحزم في وقته أمانة ومسؤولية. وهذا ما تحتاجه كل قيادة تواجه لحظات تقرير المصير.

بينما كان المسلمون يعيشون فرحة النصر والغنائم، بلغ الحيسمان بن عبد الله الخزاعي مكة بخبر الهزيمة، وكان أول من أخبر قريش بما جرى في بدر. أصابتهم الدهشة والذهول، ثم ترسخ فيهم الحزن عندما تأكدوا من مقتل كبارهم. واشتد وقع الخبر حتى إن أبا لهب أصيب بحمى ومات بعد أيام قليلة.

اجتمعت قريش وقررت ألا تُظهر الحزن ولا ترسل في فداء الأسرى، حتى لا يمتن النبي ﷺ وأصحابه عليهم، أو يغالوا في طلب الفداء. وبعد فترة، بدأ الفداء يصل، فجاء مكرز بن حفص ليفتدي سهيل بن عمرو. اقترح عمر بن الخطاب أن تُنزع ثنينا سهيل حتى لا يستطيع الخطابة مجدداً، لكن النبي ﷺ رفض قائلاً: "لا أُمثّلُ به، فيُمثّلَ الله بي وإن كنت نبياً".

كان لغزوة بدر أثر سياسي كبير في مكة؛ زاد من حرص قريش على الثأر. أما في المدينة، فقد تغيرت موازين القوى. فقد لاحظ الجميع — اليهود والمشركون والمنافقون — أن النبي ﷺ، الذي وفد عليهم مهاجراً، بات له سلطان ونفوذ لا يُستهان به، حتى كاد يكون له الأمر في المدينة بأسرها.

وبعد بدر، بدأ اليهود والمنافقون يُظهرون تذمرهم ويُحرّضون ضد المسلمين، وارتفعت أصوات الشعراء في هجاء الإسلام، وبدأت محاولات الاغتيال تتشكل. وبذلك انتقل الصراع من ساحة مكة إلى المدينة، ومن مجرد دعوة دينية إلى مواجهة سياسية مفتوحة. النبي ﷺ كان واعياً بكل ما يُدبر، وأصبح الموقف يتطلب حنكة سياسية متزايدة، واستعداداً لصراع داخلي لا يقل خطورة عن المواجهة العسكرية في الخارج.

بعد نصر بدر، ازدادت التوترات الداخلية في المدينة، وبدأت تظهر عداوات من نوع جديد، أكثر خفاءً وتعقيداً، أبرزها نفاق بعض القبائل اليهودية التي كانت تربطها بالمسلمين عهود سلام. ومن أوائل المواجهات الحاسمة كانت مع بني قينقاع.

بدأت الأزمة حين تعرضت امرأة مسلمة للإهانة في سوق بني قينقاع، فثارَت بسبب ذلك مواجهة قُتل فيها أحد المسلمين وأحد اليهود. دعا النبي ﷺ بني قينقاع إلى احترام عهدهم وكفّ الأذى، محذراً من العواقب. لكنهم ردّوا باستهزاء وتحداً، فقالوا: «يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، إن «قاتلتنا لتعلمن أننا نحن الناس

أمام هذا التهديد الصريح، أصبح من الواضح أن بقاءهم في المدينة دون مساءلة سيُضعف هيبة الدولة الإسلامية الناشئة. فخرج النبي ﷺ بالمسلمين فحاصروهم في حصونهم خمسة عشر يوماً، حتى استسلموا.

تشاور النبي ﷺ مع قادة المسلمين، ورأى في البداية أن يُنفذ فيهم حكم الإعدام. لكن عبد الله بن أبي، وكان لا يزال له نفوذ في المدينة، تدخل بشدة مدافعاً عنهم، وطلب من النبي ﷺ العفو عنهم باعتبارهم حلفاءه. وبعد مداولات، قرر النبي ﷺ إجلاء بني قينقاع عن المدينة، في خطوة سياسية حاسمة لحماية الاستقرار الداخلي وتعزيز هيبة الدولة.

خرج بنو قينقاع من المدينة تاركين وراءهم سلاحهم ومشاكلهم، واستقروا في وادي القرى، ثم انتقلوا إلى الشمال حتى بلغوا أطراف الشام.

لم تهدأ قريش بعد بدر، وزادتها سرية زيد بن حارثة على قافلتها ألماً وإصراراً على الثأر. فقد قررت قريش استخدام أرباح القافلة التي نجت من بدر في تجهيز جيش ضخم للانتقام، واستنفر زعماء القبائل والأحلاف، بل أصرت نساؤهم — وفي مقدمتهن هند بنت عتبة — على الخروج مع الجيش لإذكاء روح الثأر.

بلغ عدد الجيش ثلاثة آلاف، مزودين بمائتي فرس وثلاثة آلاف بعير، وسبعمئة دارع، وانطلقوا باتجاه المدينة بقيادة طلحة بن أبي طلحة. وكان العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، حاضراً تحضيراتهم، فبعث رسالة تحذير إلى النبي ﷺ حملها رجل غفاري، فوصل بها إلى قباء حيث كان النبي ﷺ، فقرأها عليه أبي بن كعب وأُحيط بها سراً.

أرسل النبي ﷺ عدة سُرّة للتأكد من تحركات قريش، فلما تأكد له اقتربهم، استشار المسلمين في كيفية التصدي لهم. كان رأيه ﷺ أن يتحصنوا داخل المدينة ليقاتلوا العدو من مواقع دفاعية. وافقه في ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، ورجال من كبار الصحابة. وقد عبّر بعض الصحابة، خصوصاً من لم يشهد بدرًا، عن خشيتهم أن تظن قريش أن المسلمين جبنوا عن لقائهم، إن هي رجعت دون قتال، فيتجروا عليهم في المستقبل. ومن هنا جاء إلحاحهم على الخروج من المدينة ومواجهتها في ساحة المعركة.

أمام إصرار الأغلبية، نزل النبي ﷺ على رأيهم، ملتزمًا بمبدأ الشورى الذي كان أساس نظامه في تدبير شؤون الدولة. دخل بيته، وارتنى لأمته، وتهيأ للقتال، بينما بقي الصحابة يتناقشون. عندها أدرك بعضهم — ومنهم من كان قد ألح في الخروج — أنهم خالفوا رأي النبي ﷺ، وأنهم ربما أجبروه على ما لم يكن يريد، فتوجهوا إليه معتردين، قائلين: "يا رسول الله، اصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك؛ والأمر إلى الله ثم إليك."

لكن النبي ﷺ، وقد لبس درعه، ردّ عليهم بثبات القائد: "ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه." وأمرهم بالاستعداد، مؤكّدًا أن النصر مقرون بالصبر.

وتقدّم النبي ﷺ بالمسلمين نحو أحد، حتى نزل بمنطقة الشيخين، فرأى كتيبة لا يعرفها، فقبل له: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبيّ من اليهود. فقال ﷺ: «لا نستعين بمشركين على مشركين»، فردّهم إلى المدينة. وكان لكلامه أثر في نفس ابن أبيّ، فلما أصبح، انخزل عن الجيش مع كتيبة من أتباعه، وبقي النبي ﷺ ومعه سبعمائة مؤمن يواجهون ثلاثة آلاف من قريش.

وصل الجيش إلى جبل أحد، فجعلوه وراء ظهورهم، ورتب النبي ﷺ صفوفه بدقة، فجعل خمسين من الرماة على ثغرة خلف الجيش وأوصاهم قائلاً: «احموا ظهورنا، ولا تبرحوا مكانكم، إن رأيتمونا نتنصر فلا تنزلوا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا». ثم نهى غير الرماة عن القتال حتى يأذن هو.

أما قريش فصفت جيوشها بقيادة خالد بن الوليد على الميمنة، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة، ودفعت الراية إلى طلحة بن أبي طلحة. وبدأت قريش بالتحريض على القتال، وخرج النبي ﷺ يخطب في أصحابه ويحثهم على الصبر، ثم عرض سيفه قائلاً: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، حتى أخذه أبو دجانة، وكان شجاعاً معروفاً.

وانطلقت المعركة. كان أول من اشتبك مع المسلمين أبو عامر الفاسق، فأراد أن يستميل الأوس، فنادوه: «لا أنعم الله بك عينا يا فاسق!» ففشل في خطته. اشتدت المواجهة، واندفع حمزة بن عبد المطلب إلى قلب جيش قريش، وبرز علي بن أبي طالب فقتل حامل اللواء طلحة، فكبر النبي ﷺ والمسلمون. وتقدم أبو دجانة

بسيف النبي ﷺ، يقاتل بشجاعة وسط الصفوف، حتى واجه هند بنت عتبة وامتنع عن ضربها احتراماً لسيف رسول الله ﷺ.

اندفعت قريش إلى القتال تطلب الثأر لما فُجعت به في بدر، مدفوعةً بحمية الجاهلية وشهوة الانتقام، بينما ثبت النبي ﷺ بثلاثة أرباع جيشه الأصلي بعد انخزال ابن أبي، يواجه قوة تفوقه عدداً وعدة. ومع الفجر، بدأت المعركة، والنبي ﷺ ثابت في موضع القيادة، يوجه ويشرف ويحرك الصفوف بحكمة.

أظهر حمزة بن عبد المطلب شجاعة نادرة، حتى قُتل غدرًا بحربة وحشي، الذي كان قد وُعد بالحرية إن قتل حمزة. وقد شكّل مقتل حمزة خسارة كبيرة للمسلمين على المستوى العسكري والمعنوي.

على الجبهة، كانت القيادة العسكرية للنبي ﷺ واضحة. وُضع الرماة في موقع استراتيجي لحماية ظهور المسلمين ومنع التفاف الفرسان عليهم. كما أمر النبي ﷺ بعدم مغادرة مواقعهم مهما كانت نتيجة المعركة. وقد أدت هذه الخطة إلى انتصار مبدئي كبير للمسلمين، وسقط حملة لواء قريش تباعاً، حتى انكشف الجيش المكي وبدأت النساء يُوسرن، والصنم الذي حملوه سقط أرضاً.

هذا الانتصار الأولي يُعزى إلى دقة توزيع النبي ﷺ لقواته، واستفادته من طبوغرافية المكان، وثبات جنوده في بداية المعركة. لقد تحقّق لهم نصر كبير رغم قلة العدد، ولم يكن ذلك فقط بفعل الخطط العسكرية، بل بقوة الإيمان الذي بثّه في قلوب أصحابه، ووضوح القيادة التي جسّدها النبي ﷺ في أحلك الظروف. لكن بعد هذا النصر، وقع بعض المسلمين في خطأ استراتيجي حين تركوا مواقعهم وانشغلوا بالغنائم، مما غير مجرى المعركة لاحقاً.

رأى الرماة النصر قد تحقّق ووقعت أعينهم على الغنائم، فخالف أكثرهم أمر النبي ﷺ ونزلوا من الجبل، رغم تحذير أميرهم عبد الله بن جبير. لم يبق معه إلا نفرٌ قليل. انتهز خالد بن الوليد هذه الثغرة، فالتف بفرسانه من خلف المسلمين، وأجهز على ما تبقى من الرماة، وبدأ الهجوم من الخلف. تشتت الصفوف، وضاعت وحدة المسلمين.

في غمرة الاضطراب، انتشرت شائعة أن النبي ﷺ قد قُتل، فازدادت الفوضى، وتراجع كثير من المسلمين مذهولين أو منهارين، حتى صار بعضهم يضرب بعضًا وهم لا يدرون. سادت لحظة من الانهيار العسكري الكامل، نتيجة كسر نظام القيادة وتجاهل الأوامر.

لكن النبي ﷺ لم يُقتل. بل أصيب بجراح بالغة، شُج وجهه، وكُسرت ربايعيته، وغرست حلقتان من المغفر في وجنته. ومع ذلك، حافظ ﷺ على رباطة جأشه، وساعده علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله في النهوض من حفرة سقط فيها.

ما إن علم بعض الصحابة بأنه حي، حتى عادوا يلتفون حوله دفاعًا عنه بكل ما أوتوا. اشتدت عزيمتهم، وتقدموا به إلى موقع آمن في جبل أحد. كان بينهم من ثبت وبذل كل ما في وسعه لحمايته، كالزبير وسعد بن أبي وقاص الذي ناوله النبي ﷺ السهم بيده وقال له: «ارم فداك أبي وأمي.»

وبينما اعتقدت قريش أن النبي ﷺ قد قُتل، وتوقفت عن ملاحقة جيشه، انكشف لهم خطأ ظنهم حين سمعوا صيحة كعب بن مالك يعلن أن النبي ﷺ لا يزال حيًا. لم يؤكد النبي ﷺ أو يكذب الخبر في حينه حفاظًا على توازن الموقف.

تُبرز هذه اللحظة هشاشة الوضع العسكري إذا فقد الانضباط، وأهمية التزام الأوامر، خصوصًا في لحظات الحسم. كما تظهر كيف تصرف النبي ﷺ تحت الضغط الهائل، محافظًا على القيادة رغم الجراح، وممسكًا بزمام الموقف إلى أن استطاع إعادة تنظيم الصفوف.

وفي غمرة انسحاب المسلمين إلى جبل أحد، اندفع أبي بن خلف يطلب النبي ﷺ وهو يصيح: "أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا!" فطعنه النبي ﷺ بحربته، فارتد يتلوى على فرسه حتى مات في طريق العودة.

بعدها، نُقل النبي ﷺ جريحًا إلى فم الشعب، فغسل علي بن أبي طالب وجهه بالماء، ونزع أبو عبيدة بن الجراح حلقات المغفر من وجهه فسقطت ثنيتاه. رغم الجراح، واصل ﷺ قيادة جيشه، فصرى الظهر قاعدًا وصرى خلفه المسلمون قعودًا، واستمروا في الصعود إلى الجبل بعيدًا عن مطاردة قريش.

أما قريش، فاعتبرت ذلك نصراً وردّاً لاعتبارها بعد بدر، وصرّح أبو سفيان: "يومٌ بيوم بدر، والموعِد العام المقبل." وانصرفت قريش، بعد أن مثلت بالقتلى تمثيلاً بشعاً، لا سيما ما فعلته هند بحمزة بن عبد المطلب. فكان ذلك موقفاً مؤلماً للنبي ﷺ الذي حزن حزناً شديداً، وقال عند رؤيته لعمه: «لن أصاب بمثلك أبداً». ثم قال: «و الله لنن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمتلن بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب». ثم نزل عليه قوله تعالى:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ^{١٦٧} وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) 16:127

، فاختر العفو ونهى عن المثلة.

عاد النبي ﷺ إلى المدينة وهو يدرك حجم الخطر السياسي الناتج عن الهزيمة: اليهود والمنافقون يُظهرون السرور، وعبد الله بن أبي يستغل الموقف لإضعاف سلطته. ولو بقي أثر الهزيمة دون فعل مضاد، لزعزعت ثقة العرب كلهم بمكانة المسلمين.

لهذا، قرر النبي ﷺ في اليوم التالي الخروج في حملة متابعة سريعة لمطاردة قريش نحو حمراء الأسد، شرط أن يخرج فقط من شهد أحد. أشعلت النيران ثلاث ليالٍ ليظهر للعدو عزم المسلمين على المواجهة رغم الجراح.

وصل الخبر إلى أبي سفيان ففرع من احتمال مواجهة جديدة. أرسل حيلة مع ركبٍ يُخبرون النبي ﷺ أن قريش تنوي العودة للهجوم، لكن النبي ﷺ لم يتراجع. واستمرت إشعال النيران ليرى المشركون أن النبي ﷺ ما زال مستعداً.

هذا الثبات قلب موازين الرهبة من جديد، فتراجعت قريش نحو مكة. وعاد النبي ﷺ إلى المدينة وقد استعاد شيئاً من هيبة المسلمين التي كادت تضيع، رغم بقاء أثر الهزيمة مادةً في يد المنافقين لتشكيك المؤمنين.

بعد أحداث أحد وبئر معونة والرجى، ازدادت جرأة المنافقين واليهود على المسلمين، وبدأت المؤشرات تدل على أن أمن الأمة مهدد داخليًا وخارجيًا. وكما كانت عادته صلى الله عليه وسلم في ترسيخ الأمن والاستقرار، كان يرسل بعض أصحابه للدعوة وتعليم الإسلام في القبائل، لكن مأساة بئر معونة، حيث قتل معظم المبعوثين غدراً، عمّقت شعور الخطر ورفعت مستوى التوتر.

في هذا السياق، كان يهود بني النضير حلفاء لبني عامر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه لطلب مساهمتهم في دفع دية رجلين قتلًا خطأ على يد عمرو بن أمية، وكان بين المسلمين وبينهم عهد. أظهروا في البداية القبول، لكنهم في الخفاء تأمروا على اغتياله صلى الله عليه وسلم، إذ هم أحدهم بإلقاء صخرة عليه من فوق الجدار. عندها أوحى الله إليه بما دبروه، فقام بهدوء وغادر المكان دون أن يشعروا، تاركًا أصحابه على ظن أنه سيعود قريبًا.

بعد أن طال انتظار الصحابة، انصرفوا، ثم التقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، فأخبرهم بالوحي الذي كشف مؤامرة بني النضير، ففهموا سبب تصرفهم الغريب. عندئذٍ أرسل صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إليهم برسالة يأمرهم بمغادرة المدينة خلال عشرة أيام، موضحًا أن محاولتهم اغتياله نقضٌ صريح للعهد، وأن بقاءهم بعدها سيُعد إعلان حرب.

كان هذا القرار خطوة استراتيجية لحماية أمن الأمة من تهديد داخلي كان يمكن أن يقوّض قوتها وهيبتها، ولإرسال رسالة واضحة بأن الغدر والخيانة لن يُتسامح معهما، خاصة في ظرف دقيق كانت فيه معنويات المسلمين بحاجة إلى الحزم والردع.

بعد أن بلغ محمد بن مسلمة بني النضير أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمغادرة المدينة خلال عشرة أيام، حاولوا كسب الوقت والضغط عبر استمالة ابن مسلمة بذكر الروابط القبلية القديمة، لكنه ردّ بأن التحالفات تغيرت وأن العهد قد نُقض بمحاولتهم اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم. وعندما انتهت المهلة ولم يغادروا، قاد النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين لمحاصرتهم نحو عشرين يومًا، فكان القتال متقطعًا داخل وخارج حصونهم. ولإضعاف إرادتهم في الصمود، أمر صلى الله عليه وسلم بقطع بعض نخيلهم وإحراقه، وهو إجراء أقرّه الوحي في قوله تعالى: (مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) [الحشر: 5].

بعد أن ينسوا من أي دعم خارجي، طلبوا الخروج الآمن مع أموالهم، فوافق النبي ﷺ، وخرجوا يترعمهم حيي بن أخطب. لكنهم لم يغادروا الجزيرة، بل انتقلوا إلى خيبر، وبدأ زعمائهم في التحريض ضد المسلمين. ذهبوا إلى قريش في مكة يدعونهم للتحالف على غزو المدينة، فوجدوا قريشاً في حيرة: لقد رأوا ما حققه النبي ﷺ من نجاحات دنيوية، فتساءلوا بينهم: "هل دين محمد خير من ديننا أم نحن على الحق؟". وهنا لعب بنو النضير دوراً خطيراً، إذ قدّموا أنفسهم بصفقتهم "أهل كتاب" وأهل علم بالأنبياء، فأجابوا المشركين بأن دينهم خير من دين محمد، كاذبين عليهم، ومفضلين الشرك على التوحيد. وقد فضحهم القرآن الكريم في قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) [النساء: 51].

لم يكتفِ حيي بذلك، بل جاب قبائل غطفان وبني مرة وبني فزارة وأشجع وسليم وأسد، حتى جمع حلفاً عسكرياً ضخماً قوامه نحو عشرة آلاف مقاتل. وعندما علم المسلمون بهذا التحالف غير المسبوق، تملكهم القلق، لكن النبي ﷺ تعامل مع الموقف بعقلانية وتخطيط؛ فجمع قادة المسلمين وأهل الخبرة العسكرية للتشاور، بعيداً عن الانفعال. في هذا الاجتماع اقترح سلمان الفارسي فكرة حفر الخندق حول المدينة، وهي فكرة استُخدمت في فارس ضد الجيوش الجرارة، فقبلها النبي ﷺ مباشرة، مؤكداً أن معيار قبول الرأي في الإسلام هو الحكمة والتقوى لا الأصل أو المكانة الاجتماعية.

انطلق المسلمون فوراً لتطبيق خطة الدفاع، فشرعوا في حفر الخندق، وكان النبي ﷺ يعمل بيديه إلى جانب أصحابه، يحمل التراب ويشجعهم على مضاعفة الجهد. واستُعيرت أدوات الحفر من يهود بني قريظة الذين ظلوا أوفياء للعهد آنذاك. وبجهد جماعي مكثف، اكتمل حفر الخندق خلال ستة أيام.

عندما وصلت قريش وحلفاؤها، فوجئوا باختفاء المسلمين من مواجهة مفتوحة، ووجدوا خندقاً يحول دون الوصول إلى المدينة، وهو أسلوب دفاعي لم يعهدوه من قبل. أثار ذلك استياءهم واتهموا المسلمين بالجن، لكنهم أدركوا سريعاً أن اقتحام المدينة لن يكون ممكناً بسهولة. ومع قسوة الشتاء والرياح الباردة، بدأ الإحباط يتسرب إلى صفوفهم.

في هذه اللحظة، تحرك حيي بن أخطب - زعيم بني النضير - لمحاولة قلب موازين المعركة، فعزم على إقناع بني قريظة بنقض عهدهم مع المسلمين وفتح جبهة داخلية ضدهم. توجه إلى كعب بن أسد، زعيم بني قريظة، الذي رفض في البداية لقاءه أو التفكير في خيانة العهد، لكنه ما لبث أن تردد بعد إلحاح حيي وتذكيره بما حل باليهود على يد المسلمين، ووعده بأن قريشًا وحلفاءها لن يغادروا حتى يقضوا على المسلمين، بل وتعهده أن يشاركهم مصيرهم مهما كانت النتيجة. تحت ضغط هذا الإغراء، وافق كعب على نقض العهد، لينضم بني قريظة رسميًا إلى صفوف الأحزاب.

وصل خبر الخيانة إلى النبي ﷺ، فأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عباد للتحقق، وأمرهما بكتمان الأمر إن صح حتى لا تتأثر معنويات الجيش. وعند لقائهما بكعب ومحاولتهما ثنيه عن الخيانة، اشترط إعادة بني النضير إلى بيوتهم في المدينة، ثم تصاعد الموقف حتى بدأ اليهود يشتمون النبي ﷺ، فغادر المبعوثان وأكدوا الخبر للنبي ﷺ. عندها، انقطع خط الإمداد عن المسلمين، وازدادت عزيمة قريش بعد سماعها بخيانة بني قريظة.

طلب بنو قريظة من الأحزاب أن يمنحوهم عشرة أيام كاملة للاستعداد للهجوم من الداخل، مقابل أن يواصل الأحزاب الضغط على المسلمين طوال هذه المدة، حتى يتجنبوا أي هجوم عليهم قبل أن يكتمل استعدادهم. عندها، بدأ قادة الأحزاب في توزيع قواتهم: قوة بقيادة ابن العور السلمي عبر الوادي، وأخرى بقيادة عيينة بن حصن من الخاصرة، والثالثة بقيادة أبي سفيان مباشرة عبر الخندق، مع ترقب فتح الجبهة الداخلية من قبل بني قريظة. وفي خضم هذا الموقف العصيب، وصف القرآن حال المسلمين في قوله تعالى:

(إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ...) [الأحزاب:

10-13].

حاول بعض فرسان قريش اجتياز الخندق، ومنهم عمرو بن عبد ود، حتى وجدوا ممراً ضيقاً فعبروه. بادر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه بعض المسلمين لصدّه، فبرز له عمرو متحدياً للمبارزة، فقتله عليّ، فانسحب بقية فرسانه.

في المقابل، بدأ بنو قريظة يخرجون من حصونهم لاحتلال البيوت القريبة من أحياء المسلمين، مما أثار المخاوف داخل المدينة. وفي حصن فريضة حيث النساء والأطفال، رأت صفية بنت عبد المطلب رجلاً يهودياً يتربق القلعة، فطلبت من حسان بن ثابت قتله، فلما امتنع، نزلت بنفسها وقتلته حفظاً للأمن.

وسط هذه الضغوط، جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه سرّاً، ولم يكن قومه يعلمون بذلك. وكان نعيم ذا علاقة وثيقة ببني قريظة وقريش وغطفان، موضع ثقة عندهم جميعاً. فقال له النبي ﷺ:

«إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.»

بدأ نعيم ببني قريظة، فقال لهم إن قريشاً وغطفان ليسوا من أهل هذه البلاد، فإن وجدوا فرصة رجعوا إلى أوطانهم وتركوا بني قريظة وحدهم في مواجهة المسلمين. ونصحهم ألا يقاتلوا مع الأحزاب حتى يأخذوا منهم رهائن من أشرفهم ضماناً لعدم انسحابهم.

ثم ذهب إلى قريش، وقال لهم إن بني قريظة ندموا على نقض العهد، وأرسلوا إلى محمد ﷺ يطلبون الصفح، ووعدوه أن يأخذوا رهائن من قريش وغطفان ويسلموهم إليه. ونصحهم ألا يعطوا بني قريظة أحداً إن طلبوا رهائن.

ثم ذهب إلى غطفان وأبلغهم الكلام نفسه.

بعد ذلك أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة يدعوهم إلى الهجوم المشترك. فاشتراط بنو قريظة أخذ رهائن من قريش وغطفان. فلما سمع أبو سفيان ذلك تذكر تحذير نعيم، فرفض إعطاء رهائن. فزاد الشك بين الطرفين.

تزامن ذلك مع اشتداد البرد، وقلة الزاد، وطول المقام، ثم هبت ريح شديدة في ليلة باردة، اقتلعت الخيام، وأطافت النيران، وقلبت القدور. فقام أبو سفيان في الناس وقال إن المقام لا يصلح، وإن الريح شديدة، وإن بني قريظة قد خذلوهم، وأمر بالانسحاب. فانصرف الأحزاب، وعاد كل فريق إلى بلاده.

بعد انقضاء معركة الخندق وانسحاب قريش وحلفائها، أعاد رسول الله ﷺ تقييم الموقف العام. صحيح أن الله قد صرف الأعداء عن المدينة، لكن بني قريظة ما زالوا في داخلها، وقد أثبتوا بخيانتهم أنهم خطر داخلي لا يقل عن الخطر الخارجي. ولولا أن الأحزاب انسحبوا في تلك الليلة العاصفة، لهجم بنو قريظة من الداخل وفتحوا الطريق للأعداء. لذلك، كان لابد من حسم أمرهم حتى لا تتكرر الخيانة.

أمر النبي ﷺ المؤذن أن ينادي: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فانطلق المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. حُوصرت بنو قريظة خمسة وعشرين يوماً، لم تقع خلالها إلا مناوشات قليلة بالرمح والسهم، وبقوا ملازمين حصونهم حتى أيقنوا أن لا مفر.

أرسلوا أبا لبابة، حليفهم القديم من الأوس، للتشاور. وعندما رأى نساءهم وأطفالهم يبكون، رق قلبه وأشار إليهم أن الاستسلام لحكم النبي ﷺ هو السبيل، وإلا كان مصيرهم القتل. تشاور كعب بن أسد، زعيمهم، مع قومه، واقترح الإسلام للنجاة، فرفضوا، ثم اقترح قتل النساء والأطفال ثم القتال حتى الموت، فرفضوا أيضاً. وأخيراً اتفقوا على قبول حكم رسول الله ﷺ، ظانين أن حلفاءهم من الأوس سيشفعون لهم.

لما استسلم بنو قريظة، طلبت قبيلة الأوس من النبي ﷺ أن يُحسن في حلفائهم كما أحسن من قبل في بني قينقاع حلفاء الخزرج، إذ كان بينهم عهد قديم في الجاهلية.

فقال لهم النبي ﷺ: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟»

فوافقوا، واختاروا سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان سيد الأوس، وكان قد أُصيب يوم الخندق إصابة شديدة.

فأتى به، وأخذ العهد من الفريقين أن يقبلوا حكمه. فلما استوثق من ذلك، قضى بأن يُقتل المقاتلون، وتُقسم الأموال، وتُسبى النساء والأطفال.

فقال له النبي ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.»

ونُفذ الحكم، ولم تُقتل من النساء إلا واحدة ثبت أنها قتلت مسلماً أثناء الحصار، وأسلم عدد منهم فنجوا.

كان هذا الحدث محطة فارقة في دور النبي ﷺ كقائد سياسي وعسكري؛ فقد جمع بين الحزم في مواجهة الخيانة، والعدل في إنزال العقوبة على المقاتلين فقط، والرحمة بمن لم يشارك في القتال. ورغم أن ميدان الحرب مليء بالخداع والخيانة، فقد حافظ على مبادئه الروحية والأخلاقية، فلم يقتل النساء أو الأطفال، ورفض الغدر أو نقض العهود من جانبه.

وما يميز قيادته ﷺ أنه جمع بين الإيمان العميق والتخطيط الدقيق، فقرأ المواقف والنفوس، ويوظف الحيلة المشروعة، ويختار من بين الخيارات ما يحقق مصلحة الأمة على المدى البعيد، كما فعل في صلح الحديبية. ولعل أبرز ما نتعلمه من هذا الدور أن النصر لا يكون بالقوة العسكرية وحدها، بل برؤية بعيدة المدى، وقرارات حكيمة، وتوفيق من الله عز وجل، الذي به فتح مكة بعد ثلاث سنوات من الخندق، بلا قتال ولا دماء.

٦- الزعيم

حتى وفاته كانت من أولويات الرسول ﷺ أن يحافظ على اتحاد المسلمين، رغم صعوبة الدنيا الشديدة وفتنة الأموال التي أتت مع الفتوحات، والشيطان الرجيم الذي لا يمل من زرع البغضاء بين الناس. وهنا برزت قوة الرسول ﷺ: قدرته على قراءة قلوب الناس واستعمال الأسلوب المناسب مع كل مجموعة لكسب قلوبها ونشر الإسلام.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جرى بعد فتح مكة. فقد وزع الرسول ﷺ من خمس الخمس الذي كان له من الغنائم على من كانوا أعداءه بالأمس، يريد تأليف قلوبهم للإسلام. فأعطى أبا سفيان مائة من الإبل،

وكذلك ابنه معاوية، وأعطى الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وزعماء آخرين من قريش، ثم وهب خمسين من الإبل لعدد من قادة القبائل الثانوية.

قد يبدو للوهلة الأولى أن هؤلاء لا يستحقون شيئاً بسبب ماضيهم في عداوة الإسلام، لكن الرسول ﷺ نظر ببصيرة الزعيم البعيد النظر: أراد أن يلين قلوبهم، ويحوّل العداوة إلى ولاء. وقد صدق وعد الله في قوله:

(ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) [فصلت: 34].

فالآية تشرح بالضبط ما جرى: بحسن معاملته ولطف عطاياه، تحولت قلوب طالما عاندت إلى قلوب شاكرة، بل مؤمنة. وها هو معاوية مثلاً أصبح فيما بعد من حكام المسلمين وساهم في توسع الفتوحات الإسلامية.

لكن هذه السياسة لم تكن واحدة مع الجميع. فبينما تعامل مع قريش بالمال لتأليف قلوبهم، عرف أن الأنصار لا يعينهم المال، بل يعينهم مكانة الرسول ﷺ وحبّه. ولذلك حين همس بعضهم في أنفسهم أن الرسول ﷺ أعطى قريشاً أكثر لأنه قومه، جمعهم وقال كلماته المشهورة التي أبكتهم جميعاً:

"يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم؟! ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟"

فأجابوا: "بلى، الله ورسوله المن والفضل."

فقال ﷺ: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أو جدّتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار."

فبكوا جميعاً وقالوا: "رضينا برسول الله قسماً وحظاً."

وهنا يظهر عبقرية الرسول ﷺ كزعيم: لكل قلب مفتاحه، ولكل جماعة أسلوبها. مع قريش استعمل المال، ومع الأنصار استعمل الحب والوفاء. لم يكن يعامل الناس بمنطق واحد، بل بمنطق ما يناسب قلوبهم ويصلح نفوسهم.

وهذا درس لنا في حياتنا اليومية. كم من الخصومات بين الإخوة أو الأزواج أو الجيران أو الشركاء في العمل يمكن أن تُحل فقط لو عملنا بمبدأ القرآن: "ادفع بالتي هي أحسن". لكن النفس كثيرًا ما تدفع صاحبها للانتقام بدل العفو، وللتشدد بدل اللين، فتبقى العداوات وتتراكم حتى تُفرّق بين الأحبة والأسر والجماعات. أما الرسول ﷺ فقد علّمنا أن الزعامة الحقيقية ليست فقط إدارة السلطة، بل إدارة القلوب، وربطها بالحق.

اللهم ارزقنا من حكمته ﷺ، وقدرته على جمع القلوب، وعلّمنا أن نكون من الذين يدفعون بالتي هي أحسن في أسرنا وأعمالنا ومجتمعاتنا، يا رب العالمين.

٧- القدوة الاجتماعية

لم تكن أقوال رسول الله ﷺ وحدها هي الدعامة التي قام عليها الإخاء، بل كان عمله ومثله هو التجسيد الأسمى لهذا الإخاء في أرقى صور الكمال. فقد كان رسول الله ﷺ يرفض أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية. وكان يقول لأصحابه:

"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله."

وخرج يومًا على أصحابه متكئًا على عصا، فقاموا له، فقال:

"لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا."

وكان إذا جلس مع أصحابه جلس حيث ينتهي به المجلس، لا يتميز عنهم بمكان. وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير،

ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويصافح أصحابه جميعاً. وإذا جلس إليه أحد وهو في الصلاة خفف صلاته وسأله عن حاجته، ثم عاد إليها بعد قضاء الأمر. وكان أطيب الناس نفساً وأكثرهم تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.

وفي بيته كان في مهنة أهله: يطهر ثوبه، ويرقععه، ويحلب شاته، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويعقل بغيره، ويأكل مع خادمه، ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين. وإذا رأى أحداً في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كانوا في خصاصة. ولم يكن يدّخر شيئاً لغيره؛ حتى إنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة عند يهودي في قوت عياله.

وكان جمّ التواضع، شديد الوفاء. حتى إنه حين وفد وفد النجاشي قام بخدمتهم بنفسه. فقال له أصحابه: يكفيك يا رسول الله. فقال: "إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأحببت أن أكافئهم."

وبلغ من وفائه صلى الله عليه وسلم أنه ما ذكرت خديجة إلا ذكرها بخير، حتى كانت عائشة تقول: ما غرت من امرأة كما غرت من خديجة، لما كنت أسمعه يكثر ذكرها. وجاءته امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال:

"إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان."

وبلغ من طيب نفسه ورقة قلبه أنه كان يدع بني بناته يلعبون حوله في الصلاة. بل صلى يوماً بالناس وهو يحمل ابنة ابنته زينب، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.

ولم يقف برّه ورحمته عند الإنسان، بل تعدّاه إلى الحيوان. فقد فتح بابه لهرة تلتمس عنده مأوى، ومرّض ديكاً مريضاً، ومسح بكم قميصه على جواده. وركبت عائشة بغيراً صعباً، فجعلت تردده، فقال لها: "عليك بالرفق."

وكان صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى في القوة على الحياة. قوة جعلته لا يأبى أن يعطي غيره كل ما عنده، حتى قال أحدهم: "إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة." وكان زاهداً في الدنيا؛ لا ليحرم نفسه من الطيبات،

ولكن ليكون حرًا من سلطان المال والجاه. فقد نام على فراش من آدم حشوه ليف، ولم يشبع يومين متتاليين، وربط على بطنه الحجر من الجوع. ومع ذلك عرف عنه حبه لبعض الطيبات كاللحم والعسل والقرع.

وكان زهده في اللباس مثل زهده في الطعام؛ يلبس القميص والكساء من صوف أو قطن، ويرضى بالبسيط، لكنه لا يمتنع إذا جاءته ثياب ثليق بالمقام في المناسبات.

إن زهده لم يكن تقشفًا للتقشف، ولا فريضة لازمة، فقد قال الله تعالى:

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) [البقرة: 57]

وقال: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) [القصص: 77].

بل كان يريد أن يضرب المثل الأعلى للناس في الحرية الحقيقية؛ حرية لا تستعبد بها الدنيا ولا سلطان لها عليها، لتكون العبودية لله وحده.

وهكذا كان رسول الله ﷺ قدوة عملية في التواضع، والزهد، والرحمة، حتى غدت سيرته وسنته رحمة خالدة لنا إلى يوم الدين. فمن أراد أن يحقق مهمته في هذه الدنيا فليتبع سنته، ومن أراد أقصر طريق إلى الجنة والفلاح والرشد فليقتد بهديه ﷺ.

٨- الجد وقدوة الأطفال

الطفولة من أهم المراحل وأدقها في حياة الإنسان، فهي فترة هشّة يتشكّل فيها الوعي، وتترسخ فيها التجارب التي تصاحب الطفل طوال عمره. والطفل مع قلة علمه وضعف خبرته يحتاج أحيانًا إلى يد حكيمة ترفق به وتوجّهه، بدل أن تُعامله ككائن ناقص. وقد برع الرسول ﷺ في هذا الدور، فكان قدوةً عظيمةً في التعامل مع الأطفال، بأسلوب يجمع بين الرحمة والذكاء العاطفي، حتى صار نموذجًا خالدًا في التربية.

الدكتورة فاطمة الكتاني في كتابها خلقه العظيم مع الأطفال توضح كيف أن الرسول ﷺ كان يعامل الأطفال كأشخاص مستقلين، يحترم مشاعرهم ويقدر شخصياتهم، بدل أن يذيبهم في وصاية قاسية أو يعاملهم كـ"ممتلكات". وهذا سرٌّ من أسرار نجاح تربيته ﷺ: الاحترام، الرحمة، والدعابة.

وكان الحسن والحسين رضي الله عنهما المثال الأوضح لذلك؛ حفيداه من ابنته فاطمة الزهراء. كان صلى الله عليه وسلم يحبهما حباً عظيماً، يحملهما، يضمهما، ويعلن أمام الناس: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحبّ حسيناً» (رواه ابن حبان).

وكان يُلاعبهما حتى في الصلاة. روى عبد الله بن مسعود أن الحسن والحسين كانا يثبان على ظهره وهو ساجد، فلا يزجرهما، بل يشير للصحابة أن يتركوهما. فإذا انتهى من الصلاة حملهما إلى حجره وقال: «من أحبني فليحب هذين» (رواه الألباني).

وفي موقف آخر، رآه الصحابة يقتل الحسين، فقال الأقرع بن حابس: "إن لي عشرة من الولد ما قتلت منهم أحداً قط". فردّ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بكلمة تختصر فلسفة الرحمة كلها: «من لا يرحم لا يُرحم» (رواه ابن حبان).

وكان صلى الله عليه وسلم يواسي الأطفال حتى في أحزانهم الصغيرة. دخل يوماً على أنس بن مالك، فوجد أخاه الصغير حزيناً لأن عصفوره قد مات، فقال له مماًزحاً: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟» (رواه ابن القطان). بكلمات بسيطة، حول حزنه إلى ذكرى لطيفة تبقى في نفسه.

بل حتى مع الأيتام كان قدوة في الاحتضان والحنان، فقال صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى (رواه ابن حبان). وكان يحنّ أصحابه على مسح رأس اليتيم وإطعامه، لأن ذلك يلين القلب ويجلب الرحمة.

إنها صور متكررة، لكنها تشترك في معنى واحد: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يربّي الأطفال بالكلمات وحدها، بل بالفعل والقدوة. كان يحترم مشاعرهم، يعطف عليهم، يلاعبهم، يواسيهم، ويزرع فيهم الثقة بأنهم محبوبون ومقدّرون.

لم يكن حب الرسول صلى الله عليه وسلم للأطفال مقتصرًا على ملاعبتهم واحتضانهم فقط، بل تعدّى ذلك إلى تعليمهم القيم، احترام شخصياتهم، ومعالجة أخطائهم بحكمة.

ففي موقف رائع يبين احترامه لحقوق الطفل، رُوي عن سهل بن سعد الساعدي أن النبي ﷺ شرب من قدح، وعن يمينه غلام هو أحدث القوم، وعن يساره كبار الصحابة. فقال له ﷺ: «يا غلام، أتأذن لي أن أعطي الأشياخ؟». فأجاب الغلام بكل ثقة: "ما كنت لأوثر بنصيبك منك أحدًا يا رسول الله". فابتسم النبي ﷺ وأعطاه القدح (رواه البخاري). احترام لرأي غلام صغير أمام أشياخ القوم، درس عظيم في التربية بالكرامة.

وفي موقف آخر، جاءه أبوان يتنازعان على حضانة ولدهما بعد الطلاق. فلم يجبر الطفل على أي من الطرفين، بل قال له: «هذا أبوك وهذه أمك، فخذ بيد أيهما شئت». فأخذ بيد أمه وانطلق معها (رواه الألباني). درس واضح في احترام مشاعر الطفل ورغبته.

أما حين يخطئ الطفل، فقد كان ﷺ يعالج الأمر بلطف لا يُنسى. يقول رافع بن عمرو الغفاري: "كنت وأنا غلام أرمي النخل، فأخذني النبي ﷺ وقال: «يا غلام، لم ترمي النخل؟» قلت: أكل. قال: «لا ترم النخل، وكل مما يسقط في أسفلها». ثم مسح رأسي وقال: «اللهم أشبع بطنه»" (رواه ابن حجر). لم يعنفه، بل علّمه الصواب، ودعا له بالخير.

وكان المرح والدعابة أسلوبًا أصيلاً عنده. فقد كان ﷺ يصف أبناء العباس: عبد الله وعبيد الله وكثيرًا، ويقول: «من سبق إليّ فله كذا وكذا». فيركضون نحوه ويتسابقون ليقعوا على صدره وظهره، فيقبلهم ويحتضنهم (رواه الهيثمي). أي جدّ يفعل هذا؟! إنه ﷺ أعظم قدوة في اللعب الصادق مع الأطفال.

لكن التربية عنده لم تقتصر على العاطفة فقط، بل كانت أساسًا لغرس القيم الروحية. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال لي: «يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سالت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقسمه الله لك، لم يقدرُوا عليه، و أن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك، لم يقدرُوا عليك، و اعمل لله بالشكر واليقين، و اعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، و أن النصر مع الصبر، و أن الفرج مع الكرب، و أن مع العسر يسرا»" (رواه القرطبي). كلمات قليلة، لكنها صارت منهج حياة لابن عباس، فصار حبر الأمة.

ومن القيم العملية التي غرسها صلى الله عليه وسلم: تعليم الصلاة منذ الصغر. قال صلى الله عليه وسلم: «مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سَنِينَ، وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سَنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا» (رواه ابن الملّقن). ثلاث سنوات من التكرار والتوجيه والقُدوة قبل أن يُلجأ إلى التأديب الرمزي، ليترسخ حب الصلاة عادة راسخة في النفس.

وكذلك علّمهم التسامح. قال لأنس: «يا بني، إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غشّ لأحد فافعل» (رواه المنذري). وغرس فيهم قيمة الصدق، حتى في أبسط المواقف. تقول أم عبد الله بن عامر: "ناديت ابني: ها تعال أعطك. وكان النبي صلى الله عليه وسلم حاضراً فقال: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمرّة. فقال: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة»" (رواه الألباني).

وكان حتى في الطعام يعلّم بأداب عملية. قال لعمر بن أبي سلمة رضي الله عنه وكان غلاماً يأكل من الصفحة بغير نظام: «يا غلام، سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». يقول عمر: "فما زالت تلك طعمتي بعد" (رواه البخاري).

ومن أعظم ما يبيّن أثر هذه التربية النبوية المباركة، ما أصبح عليه الأطفال الذين نشؤوا في كنفه صلى الله عليه وسلم. فقد تربّى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على توجيهاته، فصار حبر الأمة وترجمان القرآن، وأحد أعظم علماء الإسلام. ونشأ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما صغيراً في كنف النبي صلى الله عليه وسلم، فصار من أكابر علماء الصحابة وأشدهم اتباعاً للسنة، وكان من أكثرهم رواية للحديث، عُرف بورعه وزهده وحرصه على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أدق تفاصيل حياته. ونشأ الحسن بن علي رضي الله عنهما على محبته وتربيته، فصار سيّداً من سادات الأمة، وحقق الله به وحدة المسلمين حين تنازل عن الخلافة حقناً لدمائهم. وكان أسامة بن زيد رضي الله عنه مثلاً للثقة التي غرسها فيه النبي صلى الله عليه وسلم، إذ ولّاه قيادة جيشٍ عظيم وعمره نحو ثماني عشرة سنة، وجعل تحت إمرته كبار الصحابة، ووجّه الجيش لقتال الروم في بلاد الشام، فكان ذلك دليلاً على ما بلغه من نضجٍ ومسؤولية. أما أنس بن مالك رضي الله عنه، الذي خدم النبي صلى الله عليه وسلم صغيراً، فقد صار من كبار رواة الحديث وأئمة العلم.

وهكذا كانت التربية النبوية تصنع رجالاً عظماء، وتبني شخصيات راسخة في العلم والحكمة والقيادة، بإذن الله وتوفيقه. فهي تربية تقوم على الرحمة، والاحترام، وغرس القيم منذ الصغر، فتؤتي ثمارها في الدنيا صلاحاً وفي الآخرة فلاحاً.

الخاتمة

الحياة رحلة شاقة مليئة بالمسؤوليات والاختبارات. ورغم وضوح الغاية التي خلقنا الله سبحانه وتعالى من أجلها، فإن طبيعة الإنسان تقتضي أن يضعف أحياناً، وأن يخطئ أحياناً أخرى. قال الله تعالى: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) (النساء: ٢٨).

لكن جمال الأمر أن باب التوبة والعودة مفتوح دائماً، وأن النية الصالحة قادرة بإذن الله على إعادة ترتيب الحياة كلها. فالنية تشبه العضلة: تحتاج إلى تدريب مستمر، ومراجعة دائمة، وتجديد لا ينقطع. وكلما اعتنى الإنسان بنيته، كانت حياته أكثر استقامة، وتعافى سريعاً من الزلل إذا وقع.

ليس المطلوب أن يكون الإنسان معصوماً، ولكن أن يسعى بصدق، وأن يُبقي الله حاضراً في قلبه وعقله، وأن يعود إليه كلما زل أو غفل. وهكذا، فإن رحلة تحقيق العبودية الكاملة لله عز وجل هي رحلة وعي مستمر، وسعي متجدد، وتعلق دائم بالهدف الأسمى الذي من أجله خُلقنا: عبادة الله سبحانه وتعالى وحده. العبادة هي الوعي بالله في كل حركة، وكل عمل في الدنيا. ورسول الله ﷺ، الذي هو أنجح رجل في تاريخ الإنسانية، سواء في الدنيا أو في الآخرة، هو النموذج الكامل لهذا المعنى.

بطبيعة الحال، ليس لأحد منا إيمان الرسول ﷺ ولا حكمته في قراءة الناس وتسييرهم ولا أخلاقه ولا صبره. لكن في الوقت نفسه، ليست لأحد منا مسؤولياته الثقيلة ولا ما كلفه الله به. ومع ذلك، فإن لكل واحد منا نصيباً من الإيمان يمكن أن يقويه.

نعم، لن ننتظر حتى يأتينا الإيمان لكي نصلي، بل لنصلي ولو كان بشكل ميكانيكي حتى يدخل الإيمان قلوبنا. فإن الله عز وجل وعد أن يقابل خطوات عبده الصغيرة بأضعافها، فقال في الحديث القدسي: (وإن تقرب إليّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) رواه البخاري ومسلم.

كل واحد منا له حرية الاختيار، ورُزق بعقل يميز به بين الخير والشر، فلا ينبغي أن نترك الهوى يضلنا. وسواء شئنا أم أبينا، فلنا جميعاً مسؤوليات: نحن أبناء وبنات، آباء وأمهات، موظفون ومسؤولون، جيران. وإخوة في الدين، وكلنا عباد لله.

علينا أن نفعل كما فعل حبيبنا محمد ﷺ: أن ندرك أدوارنا في هذه الحياة، ثم نتساءل دائماً: كيف نرضي الله بالقيام بها؟ وبطبيعة الحال لن يكون كل يوم يسيراً، وستكون الأخطاء كثيرة، ولكن في تلك اللحظات نتذكر كيف كان رسول الله ﷺ يتصرف في أوقات الشدة، أو نتساءل: لو كان في هذا الموقف، كيف كان سيتصرف؟

ولنختتم بهذا الحديث الشريف الجامع:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته

(متفق عليه-في الصحيحين).